



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم -

كلية الأدب العربي والفنون

قسم الدراسات اللغوية

مذكرة تخرج ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في الأدب العربي تخصص
لسانيات عربية



الموضوع

بلاغة فن التوقيعات في ضوء نظرية التواصل
(دراسة تحليلية في نماذج مختارة)

أعضاء اللجنة:

- الدكتور بن عائشة حسين رئيساً
- الدكتورة فريحي مليكة مناقشة

إشراف الدكتور:

- دحماني نور الدين

إعداد الطالبين:

- بلجربة كريمة
- بلجربة سعدية

2020-2019



أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ

سورة طه، الآية 114.

الإهداء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد
صلى الله عليه وسلم.

نشكر الله ونحمده الذي أعاننا ووفقنا في إنجاز هذا البحث.
أتقدم بإهداء هذه الدراسة إلى من ربياني صغيرة، وإلى من أتمنى أن أنال رضاها
وأنا كبيرة والداي الكريمان.
إلى قرة عيني ورمز الحب والحنان والأمان أُمي، وإلى من أنار دربي وكان سندي
في مشوار الدراسي أبي.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الفاضل دحماني نور الدين على
مساعدته لنا في إتمام هذا العمل، وعلى جهوده المبذولة، ونصائحه الصائبة،
وأسأل الله أن يجزيه خيراً وأن يجعله ذخراً للعلم والمعرفة.
كما أهدي هذا العمل إلى إخوتي وإلى كل عائلة بلجربة صغيرها
وكبيرها.

زلى كل من تقدم بمساعدتنا سواءاً من قريب أو بعيد ولو بحرف، وإلى
كل من علّمني شيئاً طيلة مشواري الدراسي.

بلجربة كريمة

الإهداء

أهدي ثمرة عملي:

إلى من لم يدانوها في نقاء وصفاء قلبها.

إلى من ملأ قلبي حلاً وحناناً.

إلى قرة عيني أُمي الحبيبة الغالية.

أدامها الله فوق رأسي.

إلى من لم يهدأ له بال حتى يسعدني.

إلى سندي وفخري وعزي.

والذي العزيز أطال الله في عمره.

وإلى أخواتي وإخوتي وعائلتي كبيرها وصغيرها.

إلى أحبتي في الله.

إلى من لم يبخل عليا بعلمه وتوجيهاته ونصائحه، أستاذي المشرف

دحماني نور الدين حفظه الله وجزاه كل خير.

إلى كل من علّمني حرفاً طوال مشواري الدراسي.

بلجربة سعدية

مفصلة

مقدمة:

الحمد لله الذي إتخذ العربية لغة البيان المبين والصلاة والسلام على أفصح من نطق
بالضاد محمد صلى الله عليه وسلم، المبعوث رحمة للناس أجمعين وبعد:

إنَّ المتصّفح والمتطلّع في التراث العربي القديم يجد أنه يزخر بالعديد من الفنون النثرية
المختلفة، التي حظيت بدراسة من قبل الدارسين والباحثين كالخطابة، الوصايا، الرسائل
والأمثال والحكم وغيرها من الألوان الأدبية الأخرى.

ومن الأشكال التي لفتت انتباهنا فن التوقيعات الذي يعد فناً عربي أصيلاً خالصاً، وذلك
بإرتكازه على أسلوب بلاغي ألا وهو الإيجاز إذ يعتبر هذا الأخير أهم خاصية فنية في فن
التوقيعات، وبالإضافة إلى ذلك أن التوقيعات تسعى إلى تحقيق هدف أرقى وهو عملية
التواصل التي تحدث بين الوالي والرعية من أجل تأدية وظيفة إبلاغية إنسانية.

ولعل أهمية هذه الدراسة أنها تتناول موضوعاً لم تفرد له مساحة كافية من البحث في
الدراسات مقارنة مع الأجناس الأدبية الأخرى.

وعليه تبادرت إلى أذهاننا عدة تساؤلات نذكر بعضها: ما مفهوم التوقيع؟ وماهي
عوامله؟ وفيما تكمن خصائص هذا الفن؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات إتبعنا خطة بحث
موسومة بمقدمة التي تمهد للموضوع ومدخل وفصلين وخاتمة، متبعين في دراستنا على آليتي
الوصف والتحليل، بالاعتماد على المنهج الوصفي التاريخي.

فالمدخل عُنُونُ بنظرية التواصل: مفهومها نشأتها ووظائفها والفصل الأول المسمى
بأدبية فن التوقيعات تضمنت ستة مباحث وهي:

المبحث الأول: مفهوم التوقيعات لغة واصطلاحاً

المبحث الثاني: نشأتها عبر العصور

المبحث الثالث: عوامل ازدهارها

المبحث الرابع: خصائصها الفنية

المبحث الخامس: موضوعاتها.

المبحث السادس، الأثر النقدي لفن التوقيعات.

وأما الفصل الثاني كان تحت عنوان: فن التوقيعات في ضوء نظرية التواصل، الذي جاء على شكل نماذج تطبيقية مقتطفة من العصور منها العصر الإسلامي، العصر الأموي والعصر العباسي.

وخاتمة تشمل أهم العناصر والنتائج المتوصل إليها هذا البحث.

والسبب الذي دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع هو قلة الدراسات حول فن التوقيعات، فعلى الرغم من أهمية هذا الفن في النثر الأدبي والتراث العربي فإننا لم نجد دراسات واسعة، أو حتى أيًا من تلك الدراسات القليلة تناولته بجدية ونقص، ولهذا رأينا أن نقف عليه لنلبيه حقه من التعريف، وخاصة أنه يعد فناً عربياً تداوله الخلفاء الراشدين في عصر صدر الإسلام وهذا ما زادنا شوقاً للاطلاع والتعرف على مثل هذه الألوان البلاغية المتميزة متبعين في دراستنا على آليتين الوصف والتحليل، بالاعتماد على المنهج الوصفي التاريخي.

ومن أهم المصادر التي اعتمدنا عليها نذكر بعضها: تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات، صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، النثر في العصر العباسي هاشم مناع وياسين مأمون، والعقد الفريد لأحمد بن عبد ربّه.

ومن الصعوبات والعراقيل التي وجهناها قلة الدراسات حول فن التوقيعات، وخاصة ما يتعلق بالجانب التطبيقي.

وأخيراً نتقدم بالشكر الخالص للأستاذ المشرف نور دحماني على جهوده وخبرته التي زادتنا قوة وتحفيزاً لإتمام هذه الدراسة.

لنا ولكم التوفيق

مدخل

نظريّة التّواصل مفهوماً، نشأتها

ووظائفها

تمهيد:

لقد تعددت النظريات اللسانية بتعدد أعلامها ورؤاها، وتعتبر نظرية التواصل من بين النظريات التي اهتم بها الباحثون وتفرغوا لدراستها. تعود جذور نظرية التواصل في الأصل إلى مدرسة براغ البنيوية، ومن بين رؤاها نذكر رومان جاكبسون. وهذا الأخير اعتنى باللغة وأفرز لها ستة عناصر أساسية لكي تقوم عملية التواصل، بحيث تسعى إلى إيصال رسالة ما، ويستعمل فيها الباث أو المتلقي لغة يشترك فيها مع الأخير. وفي الأخير تتوصل العناصر الست إلى بروز ست وظائف كلامية التي قام بتحديد رومان.

وعلى هذا الأساس قد تضمن العناصر: 1- تعريف التواصل لغةً وإصطلاحاً. 2- مفهوم مصطلح التواصل في اللسانيات. 3- نظرية التواصل عند رومان جاكبسون.

1- مفهوم التواصل:

أ- لغةً: جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (أن مادة (و، ص، ل): "وصل هي أصل واحد يدل على ضم شيء إلى شيء حتى يعلقه، ووصلت به وصلاً، والوصل ضد الهجران، ومُوصل البعيد ما بين عجزه وفخذه، وتقول وصلت الشيء وصلاً والموصول به وصلاً بكسر الواو. ومن باب الوصلة العمارة والخصب).¹ معنى هذا أن الوصل هو ضم شيء إلى شيء، وكذلك هو ضد الهجران، والفصل.

وكذلك ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة (و، ص، ل) وصل: "وصلت الشيء وصلاً وصلته، والوصل ضد الهجرات، يقول ابن سيده الوصل ضد الفصل، وصل الشيء بالشيء يصله وصلاً وصلته وصلته، ووصل الشيء إلى الشيء وصولاً، وتوصل إليه: انتهى إليه وبلغه).² يتضح لنا أن الوصل معناه عند ابن منظور هو البلوغ والانتهاؤ.

وأيضاً جاء في المعجم الوسيط في مادة (و، ص، ل): (يقال وصل فلان يصل وصلاً: دعا دعوى الجاهلية بأن يقول: يا أُل فلان والشيء بالشيء وصلاً وصلته: ضمه به وجمعه ولأمه، ويقال: وصلت المرأة شعرها بشعر غيرها، وفلان وصل وصلته ضد هجرة، يكون

¹ أبي الحسين احمد ابن فارس زكريا الرازي ، معجم مقاييس اللغة، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1420 هجري، 1992 ميلادي، صفحة 634.

² أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 11، ص726.

مدخل..... نظرية التواصل: مفهومها، نشأتها، وظائفها

في عفاف الحب ويقال، وصل حبله بفلان وبرّه وأعطاه مالا، ويقال: ووصل إلى بني فلان إذا انتهى إليهم وانتسب).¹ وفي التنزيل الحكيم: (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ).²

نلاحظ من خلال التعريفات اللغوية لكلمة التواصل تتفق على أنها الضم والجمع، وكذلك البلوغ والانتهاه والانتساب. وأيضا نجد ضده الهجران والفصل الذي هو مبحث من مباحث علم المعاني في البلاغة العربية.

ب. اصطلاحاً: (يظل لفظ التواصل على تداول الألسنة له، ووروده في قطاعات معرفية مختلفة، لفظ يكتنفه الغموض، فقد يدل على معانٍ ثلاث متميزة فيما بينها:

- **نقل الخبر:** ولتصطلح على تسمية هذا النقل بـ 'الوصل'.
- **نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم،** ولتصطلح على هذا الضرب من النقل اسم 'الإيصال'.³

ويعرّفه عالم الاجتماع اللغوي ابن خلدون بقوله: (اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ منذ القصد بإفادة الكلام).⁴

والمتعمّن في هذا التعريف نجد أنّ ابن خلدون قد ركز على اللغة باعتبارها حدث لغوي وفعل لساني ينتجه المتكلم بقصد إيصال كلام مفهوم ومقنع للطرف الآخر.

وكذلك عرّفه معجم أكسفورد بأنّه: (نقل وتوصيل وتبادل الأفكار والمعلومات بالكلام أو بالكتابة، أو بالإشارات، بحيث يتم تبادل المعلومات والأفكار بين مرسل ومستقبل أو بين مرسل ومستقبلين، وكذلك يعني المشاركة في الرأي واتخاذ القرارات والاشتراك في تبادل الاتجاهات).

¹ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الدولية، ط 4-2005م، ص 27-10.

² سورة النساء، الآية 90.

³ عبد الرحمان طه، التواصل والحجاج، كلية الآداب للعلوم الإنسانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د، ط، دس، ص 04.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة، دار الفكر للنشر، لبنان، ط 1-2007، ص 494.

كما هو معلوم أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية محظى ومن أجل تحقيق التواصل لا بد على المتكلم (المرسل) أن تكون لديه ملكة لغوية وأسلوب بليغ لطرح أفكاره وآراءه بهدف التأثير وإقناع المتلقي أو المستمع.

وكما عرّفه أحمد أبو زيد بأنّه العملية التي يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين أعضاء المجتمع بصرف النظر عن حجم المجتمع وطبيعته وتكوينه وتبادل المعلومات والآراء والأفكار والتجارب فيما بينهم).¹

من خلال التعريفات نستنتج أنّ التواصل هو عملية تقوم بين شخصين أو أكثر بهدف تبادل العلاقات والأفكار والمشاعر بين الأفراد المشاركة في العملية التواصلية.

¹ نقلاً عن: جمال محمّد أبو شنب، نظريات الاتصال والإعلام، المفاهيم، المداخل النظرية، القضايا، دار المعرفة الجامعية، د، ط، 2013م، ص9-10.

2. مفهوم مصطلح التواصل في اللسانيات:

لقد ظهر مفهوم التواصل مع بزوغ فجر مدرسة براغ Prague وانتشر بشكل موسّع في بيداغوجيا تعليم اللغات. وهي المدرسة البنوية التي تعود في تأسيسها 1926م، ومن روادها ترويتسكوي وياكوبسون.

ويتبع ياكوبسون ترويتسكوي الذي يرى ومن أول حديثه عن الفلكلور أنه متحمّس لربط الفونولوجيا بالتعبير الكلامي عند التخاطب مع الآخر.

وبما أنّ ياكوبسون هو مؤسس الحلقة اللسانية لموسكو 1915م، فقد لعب دوراً هاماً في تكوين الشكلايين الروس ونظريتهم في الأدب والنقد الأدبي.

(يهتم باختين في كتابه بالموضوعية المجردة ويعني بذلك السويسرية، التي ترى أنّ اللغة نظام من العادات الخارجة عن الأشخاص المتكلمين، واللغة في رأيه تكمن في التواصل الكلامي الواقعي لا في النظام اللساني المجرد من أشكال اللغة).¹

فحينما نريد أن نحدّد ماهية اللغة يكون علينا تبعاً لسميث Smith أن نفانها بالأنساق الرمزية الأخرى، (وكذلك يرى ماكون (macon) أنّ أهم نسق سيميوطيقي، وأساس كل ما تبقى هو اللغة. فاللغة هي أساس الثقافة ونجد أنّ الأنساق الأخرى لا تشكل سوى توابع ومشتقات للنسق اللغوي والأداة الأساسية في التواصل الحاملة للأخبار هي اللغة).²

لقد ارتبط مصطلح التواصل في اللسانيات بمدرسة براغ اللسانية التي أسسها رومان ياكوبسون، والتي تعتمد في الأساس على اللغة كونها عامل رئيسي في إحداث عملية التواصل ولكي يكون التواصل ناجحاً لا بد من توفر عناصر أساسية وهي أساسية وهي: المرسل، المرسل إليه، القناة، الرسالة...إلخ.

¹ نور الدين رايس، اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1- 2014م، ص66.

² المرجع نفسه، ص67.

3. نظرية التواصل عند رومان جاكوبسون:

أ. حياة رومان جاكوبسون: (وُلد سنة 1896م بموسكو تخصَّص في القواعد المقارنة وفقه اللغة السلافية، لَمَّا كان في جامعة موسكو؛ أسَّس سنة 1915م مع بعض الطلاب (نادي موسكو الألسني)، وعنه تولَّدت مدرسة الشكلايين الروس، وساهم في وضع بعض النظريات الأدبية الحديثة.

يمثل جاكوبسون إحدى حلقات الاتصال الشخصية القليلة بين التقاليد اللغوية الغربية والأمريكية، وأصبح صاحب الحق الذي لا ينازع في تلك الدراسة، ولقد غيَّرت أفكاره تغييراً جذرياً الاتجاه الذي ظفر في علم اللغة الأمريكية في العشرين السنة الأخيرة).¹

ب. مؤلفاته: 2

- البنية الصوتية للغة - لغة الأطفال.
- قضايا الشعرية - مقالات في اللسانيات العامة.
- مبادئ اللغة.
- مقدمة في تحليل الكلام.
- التطور الفونولوجي في لغة الأطفال.
- حول نظرية الأصول الفونولوجية.
- ملاحظات حول التطور الفونولوجي للروسية.

ت. نظرية التواصل عند رومان جاكوبسون: (من بين الأفكار التي أرسى جاكوبسون جذورها تُبرز نظريته عن وظائف اللغة الست الطابع الفلسفي لتفكيره، كانت نظرية الإعلام قد طرحت عام 1948م نموذجاً للاتصال من خلال مرسل ومستقبل، تربط بينهما قناة تمر من خلالها الرسالة، هذا النموذج يقوم على نظام لنقل معلومات تتعلق بتجربة المرسل عن العالم ويسمى الموضوع).³

¹ أحمد عزوز، المدارس اللسانية، دار الأديب للنشر والتوزيع، منشورات مخبر اللغة العربية، دط، دس، ص116.

² أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجامعة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ط3، دس. ص146-147.

³ هيام كريدية، الألسنية (رواد وأعلام)، بيروت، لبنان، ط1، 2010م. 1431هـ، ص171.

استنتج جاكبسون أن للكلام ست وظائف تقابل كل واحدة منها بدقة إحدى مكونات نموذج مهندسي الإعلام، ومن العناصر التي يتطلب توفرها في الاتصال اللغوي هي: ¹

- نظام رمزي.
- قناة.
- وسيط لنقل الرمز كالصوت، والموجات الكهرومغناطيسية، والضوء والنبضات، الكهربائية وغيرها.
- إنسان أو جهاز يقوم بتركيب الرسالة.
- رسالة ذات معنى.
- إنسان أو آلة تقوم بذلك رموز تلك الرسالة.

(ولهذا تقوم عملية التواصل عند جاكبسون على ستة عوامل هي: المرسل، المرسل إليه، المرسل، السياق أو المرجع، ونظام رموز ثم قناة اتصال). ² أي أنّ المرسل إليه يستقبل الرسالة ويقوم بفك رموزها عن طريق قناة أو السياق الذي وردت فيه الرسالة، بحيث يكون هدف الرسالة هو نقل رسالة ما إلى المرسل إليه.

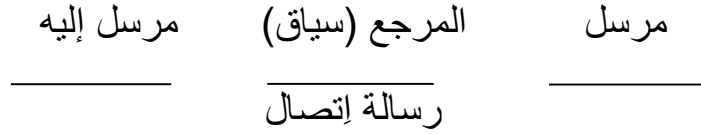
د. عناصر التواصل ووظائفه:

- 1- **عناصر التواصل:** يقوم النموذج التواصلّي لدى رومان جاكبسون على ستة عناصر أساسية التي يجب توفرها في العملية التواصلية وهي كالتالي:
 - **(المرسل):** يقوم بأداء الرسالة. - **المتلقي:** يستقبل الرسالة.
 - **إقامة الاتصال بين المرسل والمتلقي:** كي ينجح هذا الاتصال لا بدّ من وحدة بينهما، وذلك وفق قناة التحويل التي تحقق الاتصال وتبقيه قائماً). لا بدّ على المُلقّي أن يكون بينه وبين المتلقي ارتباط واتصال لأنّ بالتواصل المفعم والمعبد وبالحوار المتبادل يتحقق المطلوب ويحدث تفاهم بين الطرفين.
 - **(لغة مشتركة يتكلمها المرسل والمتلقي معا):** وهو ما يساعد ويسهّل عملية التواصل. ولكي يكون التواصل له قسمة على المرسل والمرسل إليه يجب أن تجمع بينهما لغة واحدة يتحدثان بها بهدف تحقيق العملية التواصلية.

¹ هيام كريدية، أضواء على الألسنة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، 1429هـ، ص 93-94.

² المرجع السابق، هيام كريدية، الألسنية (فرواد وأعلام)، ص 171.

- رسالة لغوية: وهي ظرف للمحتوى الكلامي، الذي تشير إليه ويفهمه في الوقت نفسه.
 - محتوى لغوي ترمز إليه الرسالة: وتشكله اللغة المشتركة بين المرسل والمتلقي).¹
- نلاحظ أنّ لكل عنصر من عناصر التواصل به دوره في إنجاح وضمان سير العملية التواصلية بكل سهولة وأريحية.



فكل عنصر من هذه العناصر لديه وظيفة أساسية يقوم بها فإذا إختل واحد منها يؤدي عدم إنجاح العملية التواصلية.

2- وظائف التواصل: إنّ كل عنصر من عناصر التواصل له وظيفة خاصة به، ولا يمكن أن تقتصر رسالة لغوية على وظيفة واحدة، ومن هنا نجد رومان جاكبسون قد حدّد ست وظائف مهمة وتمثل في:

- **الوظيفة الشعرية:** (تتركز الرسائل التي هيمنت فيها الوظيفة على الرسالة ذاتها، وكما نبّه جاكبسون على أنّها لا تقتصر على الشعر فقط وإنما ينبغي دراستها في أشكال الرسائل اللفظية الأخرى، كما أنّها تعمل على إبراز قيمة الكلمات والأصوات والتراكيب مكتسبة وإيّاها قيمة مستقلة، والشعرية عنده لا يعني بالضرورة الشعر، بل كل رسالة أو عمل فني، حيث قيمة الدال في المرسل الشعرية مساوية لقيمة المدلول أو متفرقة عليه (المدلول)).² ومن أمثلة ذلك النصوص التي تهيمت عليها أخذه الوظيفة (لوحة زيتية، القصائد الشعرية) والحكم على المرسل الشعرية بالجمال أو القبح، وبهذا نجد أنّ الوظيفة تركز على الرسالة مع عدم إهمال العناصر الثانوية الأخرى. والهدف من عملية التواصل هو البحث عما يجعل من الرسالة الشعرية أو الجمالية وذلك بالبحث عن تلك الخصائص الشعرية والجمالية مثل التركيز على جمالية القصيدة ومكوناتها الإنشائية والشكلانية).³

¹ نعمان بوقرة، اللسانيات العامة اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 1430هـ، 2009م، ص96.

² عبد القادر الغزالي، لسانيات ونظرية التواصل (رومان جاكبسون نموذجاً)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003م، ص50.

³ المرجع نفسه، ص50.

- **الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية:** (وهي التي تحدد العلاقة بين المرسل والرسالة وموقفه منها، لأنّ الرسالة عن مرسلها تعكس حالتها، إضافة إلى ما تحمله من أفكار تتعلق بالسياق (المرجع) الذي يعبر المرسل عن مشاعره واتجاهه)¹، معنى ذلك أنّ الوظيفة التعبيرية ينتجها المرسل وتمثل شخصيته في الخطاب وذلك من خلال ردود أفعاله.
- **الوظيفة الندائية:** (توجد في الجمل التي ينادي بها المرسل المتلقي، لإثارة انتباهه أو لطلب القيام بعمل ما، وتدخل الجملة الأمرية بين هذه الوظيفة)². وتتمحور هذه الوظيفة حول المرسل إليه وما يتعلق به ويضعه في المرسل لإثارة انتباهه، وذلك باستعمال الأساليب الإنشائية كالأمر.
- **وظيفة ما وراء اللغة:** "تظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي تكون فيها اللغة مادة للدراسة، فتعمل على وصف اللغة، وذكر عناصرها، والتعريف بمفرداتها؛ إنّها وظيفة كلام اللغة عن اللغة نفسها)³. تتعلق هذه الوظيفة المستعملة ذاتها في المرسلات وكل ما يساعد على توضيحها، فتشمل عناصر البنية اللغوية وتعريف المفردات لتؤكد طرف الخطاب من أنّ التخاطب قائم على التفاهم المتبادل بينهم.
- **وظيفة إقامة اتصال:** (وذلك حيث يحاول المرسل إبقاء الاتصال مع المتلقي عن طريق ألفاظ بسيطة تحمل أفكاراً مثل: 'الو' و 'هاه' والعبارة الشكسبيرية: 'أعرنى أذنك').⁴ تتمحور حول إقامة الاتصال وتمكّن في الحرص على إبقائه بين المرسل والمرسل إليه أثناء عملية التخاطب، كما تراعي تأمين استمرار التواصل بغية الإبلاغ عن المقصود.
- **الوظيفة المرجعية:** (هي أكثر وظائف اللغة أهمية في عملية التواصل ذاتها، وتسمى أيضاً التعيينية أو التعريفية، وتعتبر العمل الرئيسي للعديد من الرسائل، تتجه في العملية للمرجع (أو الموضوع)⁵. تتمركز هذه الوظيفة حول السياق، وتظهر في المرسل ذات المحتوى الذي يتناول موضوعات أحداث معينة. فهي نواة التواصل، لأنّها تُحقّق أهداف إبلاغية للآخرين.

¹ المرجع السابق، نعمان بوقرة، اللسانيات العامة، اتجاهها وقضاياها الراهنة، ص96.

² المرجع نفسه، ص97.

³ المرجع السابق، أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص 146.

⁴ المرجع السابق، نعمان بوقرة، اللسانيات العامة، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، ص97.

⁵ المرجع نفسه، ص 97.

الفصل الأول

أبواب فن التوقيعات

تمهيد: يعتبر فن التوقيعات من الفنون النثرية التي ذاع صيتها في العصر الإسلامي مع الخلفاء الراشدين، فكان بداياته وانتشاره على يدهم رضوان الله عليهم، ثم بدأ يتوسّع هذا الفن في العصر الأموي، بيداً أنه نضج وتطور وازدهر في العصر العباسي.

وعليه تناولنا في هذا الفصل المعنون ب: أدبية فن التوقيعات.

- أولاً: مفهوم التوقيعات (لغةً واصطلاحاً)
- ثانياً: نشأتها عبر العصور.
- ثالثاً: عوامل ازدهارها.
- رابعاً: خصائصها الفنية.
- خامساً: موضوعاتها.
- سادساً: الأثر النقدي لفن التوقيعات.

1. تعريف التوقيعات:

أ. **لغةً:** لقد تعددت التعريفات اللغوية لكلمة التوقيع: وهذا يظهر من خلال التعريفات التالية: (جاء في قاموس المحيط: وَقَعَ، يَقَعُ، بفتحهما وَقوعاً، سقط والقول عليهم وَجَبَ، والإبل بركت، والدواب ربضت، وربيع بالأرض حصل، ولا يُقال، سقط والطير: إذ كانت على شجر أو أرض فهنا وقوع).¹

يتضح لنا من خلال التعريف أنّ التوقيع يحمل معنيين أولهما السقوط وثانيهما الوقوع.

وورد في القرآن الكريم لقوله تعالى: (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ).² أي ويل بأولئك المكذبين بآيات الله تعالى من السخط والغضب بتكذيبهم بها، فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم، عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم، وهذا نحو قوله تعالى: (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ** وَلَا يُؤَدُّنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ).³

¹ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، رتبه ووثقه خليل مأمون شيعا، دار المعرفة للطباعة والنشر (بيروت، لبنان)، 2009، 1430، ط4، ص 1414.

² سورة النمل: الآية 85.

³ سورة المرسلات، الآية 35-36.

(وأورد الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه 'العين': والتوقيع في الكتاب: إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه، وتوقعت الأمر، أي انتظرت، والتوقيع رمي قريب لا تباعده كأنك تريد أن توقعه على شيء، وكذا الإركان، تقول: وقّع: أي ألق ظنك على كذا، فتحمل لفظة التوقيع عند الخليل عدة دلالات منها: إلحاق الشيء بعد الفراغ منه، الانتظار وكذلك الظن. والتوقيع سحجٌ بأطراف عظام الدالة من الركوب، وربما تحاصي عنه الشعر.

قال الكميث:

إذا هما ارتدفا نصًا قعودهما إلى التي غبها التوقيع والخزل).¹

(وقيل التوقيع: ما يوقع في الكتاب، ويقال: السرور توقيع جائر والتوقيع: الإصابة، أنشد ثعلب يقول:

وقد جعلت بوائق من أمورٍ توقع دونه وتكفّ دوني).²

وهنا جاء التوقيع بمعنى سجع بأطراف عظام الدابة من الركوب، وأيضا الإصابة.

نستنتج من خلال التعريفات اللغوية لمفردة التوقيع أنها مشتقة من الفعل الثلاثي (وقع)، وأيضا نجدها تحمل عدة معاني مشتقة ودلالات وهي السقوط، الوقوع، إلحاق الشيء بعد الفراغ منه الظن، الانتظار، وكذلك سجع بأطراف عظام الدابة من الركوب والإصابة.

ب. التوقيعات اصطلاحاً: بعد أن شاع استعمال التوقيعات في العصور الإسلامية، اكتسب معنى اصطلاحياً، وهو كما يلي:

يعرّفها القلقشندي بقوله: (هي الكتابة على حواشي الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدّث في المظالم وهو أمر جليل،

¹ الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق، عبد الحميد الهنداوي، ج4، دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان) 2003م، 1424هـ، ط1، ص392.

² أبي الفضل جمال الدين محمد بن متطور الإفريقي المصري، لسان العرب، مجلد 8، دار صادر (بيروت-لبنان)، 1863، دط، ص406.

ومنصب حفيّل).¹ معنى هذا أن التوقيعات هي الكتابات التي تكون على حواشي الرقاع وتتضمن أمر من أمور المكاتبات المتعلقة بالملكة وشؤونها.

(والتوقيعات هي من أبلغ الكلام ومن أجزه لفظاً وأوسع معنًى وأفواه مغزى، فهي عبارات موجزة كان يكتبها الخليفة أو الوالي، أو عمالها في أسفل الشكاوى والمظالم أو المطالب والحاجات التي كانت ترفع إليهم بما يتضمن الرأي فيها بحيث كان يكتب إلى الوزير في عرض ما، فيكتب الرئيس عنه بما يفيد وجوب الفحص أو قضاء المأرب).² بعبارة أخرى إن التوقيعات تكون بعبارات موجزة يكتبها الخليفة أو الولي أو الرعية وتكون في أسفل الشكاوى والمظالم بهدف تلبية المطالب والحاجات التي يريدون تحقيقها، ويرد عليهم الرئيس بالقبول أو الرفض.

ويعرّفها أحمد حسن الزيات في كتابه (تاريخ الأدب العربي) بقوله: (التوقيعات هي ما يعلّقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال وميزتها الجمع والإيجاز والجمال والقوة، وقد تكون آية أو مثلاً أو بيتاً شعرياً).³ وهذا ما سنتطرق إليه في تحليل النماذج.

نلاحظ ممّا سبق أنّ التعريفات المذكورة تشير أنّ التوقيعات لون من ألوان الكتابة ذات عبارات موجزة بليغة يكتبها الأمير أو الوزير أو الخليفة في أسفل الكتب الواردة إليهم بهدف حل الشكاوى ونصرة المظلوم، ضف إلى ذلك أنّ التوقيع يتميّز بالاختصار والقوة والجمال، وهذا ناتج عن موهبة وفصاحة وبلاغة الموقعين.

¹ القلقشندي ابو عباس أحمد علي (821 هـ 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ويوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، ط الأولى، بيروت 1407 / 1987م، ج1ن ص110.

² حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، دط، 1426هـ، 2005م، ص371.

³ أحمد حسن الزيان، تاريخ الأدب العربي، دار الشرف العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان-بيروت، طبعة جديدة، ص207.

2. نشأتها عبر العصور: نشأ فن التوقيعات من رحم الكتابة، لذلك لم يعرب عرب الجاهلية فن التوقيعات، ولم تكن بين فنون أدبهم الشفوي الفصيح كالشعر والخطابة، الوصية والأمثال والحكم وغيرها، وهذا ما دعا عدداً من الدارسين إلى غزو ظهور هذا الفن إلى أثر الثقافة الفارسية في مظاهر الحياة في المجتمع العباسي، ومن ثم تطورت هذه الثقافة الوافدة على عاصمة الخلافة في بغداد.

وممن ذهب هذا المذهب أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام)، حيث قال: (وقد سل سبل التوقيعات في عهد بني العباس، وكان أكثر الكتاب والوزراء فُرساء، فساروا على سند أباؤهم وكثر ذلك حتى أنشئوا فيما بعد ديواناً أسموه ديوان التوقيع).

أ. عصر صدر الإسلام: لقد بدأ فن التوقيعات (تلوح في الأفق مع الخلافة الراشدة، وبالتحديد في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولعلّ السبب الذي حال دون انتشار هذا الفن قبل ذلك، هو أنّ العرب أمة أميّة، شاعت القراءة فيها بعد ظهور الإسلام، ولم تنتشر بينهم على نطاقٍ واسعٍ إلا بعد الخلافة الراشدة، يعود ترجيح بداية فن التوقيعات إلى الخلافة الراشدة لأنّ التوقيعات لا تكون إلا في الكتابة على الرقاع والقصص وغيرها، أي يعتمد التوقيع على الكتابة التي تشمل القلم الذي يسطر ما يتصوره الذهن ويتخيّله الوهم وذلك بأسلوب بليغ موجز).¹

ومن أقدم التوقيعات التي وصلتنا هي التي (وقّعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، توقيعه على كتاب ورده من خالد ابن الوليد من دومة الجندل يستأمره في أمر العدو: 'ادن من الموت توهب لك الحياة).

ولو قمنا بعدّ توقيعات الخلفاء الراشدين لوجدناها لا تتجاوز أصابع اليدين).² ومن هذا، إنّ فن التوقيعات ظهر في العهد الراشدي، ولكن نسبة الموقعين لا تتعدّى عشر خلفاء، ولعلّ السبب في قلّة التوقيعات في زمن الخلافة الراشدة يعود إلى:

¹ هاشم مناع ومأمون ياسين، النشر في العصر العباسي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999، ص213.

² المرجع نفسه، ص213.

- (ضياح توقيعات تلك المدّة، أو عدم تدوينها، أو اختلاطها بأقوال الخلفاء رضوان الله عليهم، ذلك أنّ المصادر لم تميّز بين هذه الأقوال التي عمادها اللسان، وبين التوقيعات التي عمادها الكتابة).¹
- معنى هذا أنّ التوقيعات كانت معروفة لدى الخلفاء الراشدين، لكن الكتاب لم يفرقوا بين ما هو شفهي وما هو كتابي، وهذا أدى إلى قلة التوقيعات الإسلامية، ويضاف إلى ذلك:
- (انتشار العدل والأمن والأمان، ومثال ذلك ما وقعته المهدي عن غلاء الأسعار إلى صاحب خراسان: (خذهم بالعدل في المكيال والميزان)². إنّ الاحتفاء بقيمة العدل والدعوة بها يشيران إلى وجود واقع مليء بالجور والظلم، وهذا ما أدى بالموقعين وغيرهم إلى الدعوة والتحلي والالتزام بالعدل والانصاف.
- نصرة المظلوم ومعاقبة الظالم³، أي أنّ هناك كثير من التوقيعات يعود إلى المظالم ويحكم فيها الخليفة بسرعة لأنّ المظلوم متلهف للحصول على حقه كمثل توقيع عمر بن عبد العزيز في قصة متظلم، (العدل أمامك).⁴
- اتّصال الخلفاء بالرعيّة وجلوسهم إليهم، معنى هذا أنّ الخليفة يستمع للرعيّة وتطرح الرعيّة مطالبها شكواها⁵، وبعدها يقوم بالرد عليها في خاتمة كتاباته.
- وجود البطانة الصالحة التي لا تسيطر عليها الأهواء والمصالح الشخصية، معنى هذا أنّ الخلفاء كانوا يحكمون بالعدل والميزان، وأيضاً لا يفضلون مصالحهم الشخصية على مصالح الرعيّة.
- محدودية الرعيّة الإسلامية، أي أنّ انتشار الإسلام كان على نطاق محدود وهذا ما أدى إلى وجود توقيعات قليلة في عصر الخلافة الراشدة).⁶

¹ الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، دار القلم، بيروت، ط1، ص448.

² المرجع السابق: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص391.

³ المرجع السابق: هاشم مناع، النثر في العصر العباسي، ص215.

⁴ المرجع نفسه، ص215.

⁵ المرجع نفسه، ص215.

⁶ المرجع السابق: هاشم مناع مأمون، النثر في العصر العباسي، المرجع السابق، ص215.

ب. العصر الأموي:

بدأ فن التوقيعات في العصر الأموي (ينتشر بقلّة بحيث أصبح كل خليفة إلاّ وله مجموعة من هذه التوقيعات لا يستعان بها، ويمكن عدّها بذور صالحة في بيئة محفوفة بالرعاية، ممّا يجعلها أساس لهذا الفن).¹

نلاحظ أنّ استعمال التوقيعات زاد واتسع نتيجة لتوسع الدولة الإسلامية، واتساع لأحداث السياسية، وبداية عهد الكتابة وانتشارها في الجوانب الرسمية، وأيضا التدوين المعرفي الذي يلعب دوراً بارزاً في كتابة التوقيعات.

ومن التوقيعات الأموية هي توقيعات معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، من ذلك ما كتبه إليه عبد الله بن عامر في أمرٍ عاتبه فيه؛ فوقّع في أسفل كتابه: (بيت أمية في الجاهلية أشرف من حبيب في الإسلام، فأنت تراه).²

تضمّنت التوقيعة معاتبة عبد الله بن عامر لمعاوية، فالموقع أو المرسل هو عبد الله بن عامر، والموقع له أو المرسل إليه هو معاوية، وأيضا تضمنت صيغة بلاغية وهي صيغة التفضيل (أشرف)، نرى أنه فضل بين أميته على حبيب في الإسلام، وكذلك استخدم محسن بدعيي يتمثل في الجاهلية والإسلام.

ووقّع معاوية في مجال الافتخار: (نحن الزمان: من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتّضع).³ فإن الموقع له لا يمكن أن يدرك قيمة الرفعة (ارتفع) إلا إذا ذكر بالإهانة (اتّضع)، وهنا سيدرك قيمة إنعام الخليفة عليه، وهذا الأسلوب مشهور في الثقافة الإسلامية عموماً، فإنّ الحديث عن الترغيب والترهيب غالباً ما يكونا مقترنين، ففي القرآن الكريم نجد النعيم والجحيم مقترنين غالباً، فالمتلقي يرى أمامه الضدين فيقارن بينهما ويدرك قيمة الشيء عندما يخير بضده وهذا الأسلوب يطلق عليه الطباق والمقابلة ومن فوائدها تداعي المعاني والمقارنة واتبات الضد بضده.

¹ المرجع السابق: هاشم مناع مأمون، النشر في العصر العباسي، ص215.

² احمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تح، عبد المجيد الريجيني، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404، 1983، ص288.

³ الثعالبي، خاص الخاص، منشورات دار مكتبة حياة، بيروت، دط، ص86.

ت. العصر العباسي: وحينما نصل إلى العصر العباسي نجد (أنّ الخلفاء منهم مَنْ كان شاعراً ومنهم من كان أديباً، وكلُّهم حرصوا على فتح أبوابهم للعلماء والفقهاء والشعراء، وجذبوا لدولتهم عظام الكتاب، واتَّخذوا لأبنائهم مشاهير ومؤدبين والعلماء ليقوموا على تربيتهم).¹ من خلال هذا نجد أنّ (فن التوقيعات قد إنتشر بعد أن نمت جذوره في العصور السابقة، إذ قطف العباسيون ثمار هذا الفن ناضجة).² وهذا راجع إلى تطور النثر العربي، وكذلك إلى ازدهار الكتابة الفنية التي لم تكن مزدهرة من قبل.

فمن التوقيعات العباسية نجد ما وقعته (السفاح)³ في كتاب ورّده من جماعة أهل الأنبار يذكرون (أنّ منازلهم أُخذت منهم ودُخِلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا أثمانها: هذا بناء أُسس على غير تقوى ثم أمر بدفع قيم منازلهم إليهم).⁴ تعني التوقيعة أنّ هناك منازل أُخذت من أصحابها وأدخلت في البناء، فقام السفاح بدفع أثمان منازلهم لأنّ التوقيعات تحمل قيمة متعددة ومنها قيمة العدل والإنصاف لكي لا ينتشر الظلم بين الرعاة والخلفاء والولاة.

يتّضح لنا من خلال تتبُّع العصور أنّ نشأة التوقيعات بدأت مع الخلافة الراشدة، لكنها كانت قليلة. أفكان نموها أكثر في العصر الأموي، إذ أصبح لكل خليفة مجموعة من التوقيعات، وأخيراً جاء العصر العباسي فوجد هذا الفن كاملاً وناضجاً بفضل جهود العصور السابقة.

ولعلّ الأسباب التي أدت إلى تطور التوقيعات في هذا العصر هو التحضر الثقافي، وزيادة أعباء الدولة ومشاكل الخلفاء ورجال الدولة، فلم يسمح لهم الزمن بإقامة خطابات مطولة وكتابات تفصيلية فكانت حاجتهم إلى مثل هذه العبارات الموجزة. معنى هذا أنّ التوقيعات في العصر العباسي كان لها دوراً بارزاً وذلك يظهر من عدد التوقيعات وأيضاً ساعدتهم لضيق الوقت وكثرة الأعباء والأشغال، فكانت الحل الأنسب لهم.

¹ محمد عيسى صالحية، مقال مؤدبو الخلفاء في العصر العباسي الأول، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 5، المجلد 5، ج2، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1982، ص43-44.

² المرجع السابق: هاشم مناع ومأمون، النثري العصر العباسي، ص218.

³ السفاح هو الخليفة العباسي عبد الله أبو العباس الذي تنتسب إليه الخلافة العباسية.

⁴ المرجع السابق، أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص293.

3. عوامل ازدهار فن التوقيعات:

لقد تعددت الأسباب والعوامل التي أدت إلى ازدهار وتفشي فن التوقيعات في مختلف العصور، وسوف نذكر منها:

1- (انتشار الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الانتصار على الفرس والروم، واعتناق كثير من الجنسيات والقوميات الدين الإسلامي).¹

■ من الملاحظ أنّ الفتوحات الإسلامية حققت هدفها من خلال الانتصار على الفرس والروم، والسبب الرئيسي والمدعم الحقيقي هو بلا شكّ الدين الإسلامي.

2- (انتشار الكتابة والتعلم والتعليم، بعد أن كانت الكتابة مقصورة على عدد محدود من المسلمين، الذين كانوا أميين لا يعرفون الكتابة والقراءة في صدر الإسلام، إذ الرسول ﷺ يشجّع على تعلم الكتابة، التي هي عماد التوقيعات بطرق مختلفة، من ذلك أنّه جعل فداء بعض أسرى قريش في بدر ممن تعلموا الكتابة أن يُعلموها عشرة من صبيان المدينة).²

■ معنى ذلك أنّ الرسول ﷺ شجّع وساهم في تعليم الصبيان الكتابة والقراءة، وتُعتبر الكتابة عماد التوقيعات وهذا ما أدى إلى انتشارها بين صفوف المسلمين، ولا سيّما في عصر الدولتين: الأموية والعباسية.

3- (حاجة الولاة إلى الردود السريعة على مكاتبتهم أو رسائلهم لأهميتها وكثرتها، خشية تراكمها وتأخرها، ممّا يحول دون حلّ مشاكل الولاة والنظر في مصالحهم.

4- كثرة الأعباء الملقة على كاهل الحكّام؛ لتنوّع إدارات الدولة وشؤونها.

5- مواقف بعض الحكام والولاة من الرعية، ممّا يدفع بهم إلى الكتابة فوراً إلى من هو أعلى منهم لعرض حاجاتهم ومطالبهم).³

■ لقد كان الولاة والحكام بحاجة إلى كتابة التوقيعات، وذلك بهدف تلبية حاجات الرعية وحل مشاكلهم الاجتماعية.

¹ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1971، ص95 – 96.

² المرجع السابق، هاشم مناع ومأمون، النثر في العصر العباسي، ص220.

³ المرجع نفسه، ص221.

6- تشدّد بعض الولاة، وانتشار الفساد في بعض المناطق، وكثرة المظالم والتّظلم من الولاة، وتفضيل المصالح الشخصية على الامور الخاصة بشؤون الدولة والرعية.

7- تقصير بعض الولاة في فهم أوضاع النّاس، وتفهم مشاكلهم وبحث مظالمهم).¹

■ معنى هذا أنّ تشدّد الولاة في فهم أوضاع الناس ومحاربة الظلم والظالمين أدّى إلى انتشار الفساد في مختلف إدارات الدولة.

8- ظهور كثير من (الكتّاب في بلاط الخلفاء والحكام، ومقدرتهم على التأنق في حياتهم الأدبية، إذ أخذوا يتأثّقون في كتاباتهم، ويتبارزون في تزيينها، ويتبارون في تأنيقها، ونذكر منهم جعفر بن يحي البرمكي، والفضل بن سهل، والحسن بن سهل، وغيرهم، ويقول الجهشيارى: (وكان جعفر بن يحي بليغاً كاتباً، وكان إذا وقّع نُسخت توقيعاته، وتدور ست بلاغاته.

■ يُعتبر جعفر بن يحي من البارعين في تركيب التوقيعات، وهذا يظهر من خلال تسابق الناس على توقيعاته.

9- اهتمام الناس بالتوقيعات وولعهم بها، وحرصهم على اقتنائها، يقال: كان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحي الذي كان يلي ديوان التوقيع الرشيد، ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها حتّى قيل: إنّها كانت تُباع كل توقيع بدينار.

10- لقد نشأت بذور التوقيعات في بيئة عربية صالحة، ونمت وترعرعت مثل الفنون الأخرى، فكان لا بدّ لها من الظهور لوجود الرّصيد الديني، والتراث الأدبي من أمثال وجكّم، لأنّها هي المادة الأولى والبنية التحتية، والأساس المتين للتوقيعات، وكذلك ثقافة الموقعين وموهبتهم وبلاغتهم وخبرتهم وتجربتهم، والصلاحية الممنوحة لهم).²

■ نلاحظ أنّ اهتمام الناس وولعهم وحرصهم على اقتناء مختلف التوقيعات، كان سبباً في ازدهارها ونموها عبر العصور، والفضل راجع إلى الرّصيد الديني أوّلاً، والتراث الأدبي ثانياً، وكذلك قدرة الموقعين وموهبتهم في صياغة التوقيعات.

¹ المرجع السابق، هاشم مناع ومأمون، النثر في العصر العباسي، ص221.

² المرجع نفسه، ص221.

4. الخصائص الفنية للتوقيعات:

من بين أهم الخصائص التي تميّزت بها اللغة العربية وآدابها هي تفوّقها من الناحية البيانية تفوّقاً لم يحظى به أي أدب آخر وتميّزت التوقيعات بعدة خصائص والتي يمكن أن نوجزها بما يلي:

1- (لم يكن في التوقيعات مجال للتملّق والمداهنة أو الهراء أو الكذب، أو المخادعة والمراوغة، أو التّخاذل أو الاستكانة)¹.

■ لأنها تصدر عادة عن الرئيس إلى مرؤوس، وليس العكس، فهي تصيب كبد الحقيقة وبؤرة المقصود، وترد على المطلوب، وتحل القضايا بالردود، دون الحاجة إلى تأويل ومراجعة، أو شرح وتفصيل، فهي جواب شافٍ، ورد وافٍ.

2- اعتمد كثير من التوقيعات على (الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، والتضمين للشعر والنثر وما جرى مجراهما، فجاء الاقتباس والتضمين في مكانه اللائق به، ومحله المخصوص بوصفه، فوقّعت في أحسن موقع، وقامت في أجمل مقام، ونظمت في أجمل نظام.

وأغنت (المعني بالأمر عن شرح الحال، وإطالة المقال، فكانت هي القول الفعل في القطع والوصل والفصل والعزل والولاية، أضف إلى ذلك أنّ كثير من التوقيعات المؤلفة حملت في مضامينها المعاني الإسلامية.

■ نلاحظ أنّ الموقعين كانت لديهم براعة في التأليف والتركيب، وذلك من خلال المقام، وقد يشيد عن هذا المقام الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث أو التضمين، فكل واحد منهم جاء في مكانه المناسب وحاملاً لمضمونه المطلوب، بالإضافة إلى بعض التوقيعات التي حملت معاني إسلامية مثلاً: العدل والانصاف والصدق وغيرها من المعاني والقيم.

3- اعتمدت هذه التوقيعات (على الفطرة السليمة، والموهبة الفذة، والبديهة الحادة والارتجال في التعبير عن الحال، والثقافة الواسعة، والتجربة العميقة، والخبرة الطويلة، واحتاجت

¹ الفلّاقشندي، صبحي الأعمى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، دط، دت، ج1، ص302.

- إلى الجمع بين الموهبة والثقافة، وإجابة الفكر وإعمال العقل، وحضور الذهن، وصفاء القلب، والشدة في التعبير بلا لين، والترفق من غير ضعف).¹
- يمكن القول بعبارة أخرى أن التوقيعات تعتمد في كتابتها على السجية والفطرة والحدق في التعبير، دون تكلف وتصنع في العبارات والجمل التي يوظفها الموقعون.
- 4- ولقد جرت التوقيعات مجرى الأمثال: وكانت أسرى من الخيال، تناقلها الناس إذ أخذوا يرددونها ويتداولونها، قد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكنه أن تبلغه من الاختصار والبلاغة وإظهار ذكاء موقعها، وقدرته على حسن الفصل، وإصابة الغرض).²
- لقد تميزت التوقيعات بالإيجاز والاختصار، وذلك بهدف إصابة الغرض المقصود، وذلك بالاعتماد على المثل السائد في بعض الأحيان، مثل: (ما وقع به الصاحب بن عباد في كتاب رُفِع إليه رجلا: عصي له أمرا، فوق: العصا لمن عصي).³ معنى هذا أن الرعية الذي يعصي أمر الخليفة أو الوزير فيجب معاقبته ليكون عبرة لغيره، وهنا إقتضى المقام الاعتماد على المثل السائر دون إطالة الكلام.
- 5- (التوقيعات عميقة في معناها قريبة في مبناها، قوية في دلالتها، بعيدة في مداها، دقيقة في إيحاءها، مغنية في شرحها ملائمة لبسط حالها، موجزة في عبارتها بليغة في تعبيرها شديدة في تأثيرها.
- 6- جاءت في صياغتها كاملة، وفي تراكيبها تامة، لا حشو فيها ولا زيادة ولا تطويل ولا إطباب).⁴ المقصود من هذا أن التوقيعات تمتاز بسمات وخصائص هامة ونذكر منها الإيجاز والبلاغة اللذان تزيدانها قوة.
- 7- (تمتاز بأسلوب موجز محكم، رصين مكثف لذلك جاءت العبارات متينة في معناها، محكمة في صياغتها، جزلة في صناعتها، جمّة في نسجها.

¹ المرجع السابق، هاشم مناع وأمّون، النثر في العصر العباسي، ص237.

² المرجع السابق: هاشم مناع وأمّون، النثر في العصر العباسي، ص238.

³ محمد بن ابراهيم الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، دط، دس، لبنان، بيروت، ج2، ص442.

⁴ المرجع السابق، هاشم مناع وأمّون، النثر في العصر العباسي، ص238.

- 8- وردت ألفاظها عذبة سائرة بين الحسن والجودة، والحلاوة والمتانة والرقّة والفخامة، والسهولة والجزالة، والبساطة والرصانة، والجمال والقوة¹.
- إذن اشتمل فن التوقيع في صياغته على تركيب دلالي وبلاغي مما زاد التوقيعة عمقاً في المعنى وقرباً في المبنى، ودقة في الإيحاء، وقوة في التأثير في النفس بأسلوب بليغ محكم تتميز ألفاظها بالحسن والجودة في نُظْم عباراتها العذبة.
- 9- (ولمّا كانت التوقيعات تجري مجرى المثل، فإنّها تمتاز به من إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن (التشبيه)²، وجودة (الكناية)³، وإذا توافرت هذه الأمور في فنّ من الفنون، فإنّه يكون نهاية في البلاغة)⁴.
- تكون التوقيعات في منتهى البلاغة إذا اجتمعت فيها الأمور السابقة الذكر مما يزيد جمالاً وقوة في مغزاها.
- 10- تمتاز التوقيعات بقصر جملها، مع توازنها في الطول والقصر ومن ذلك ما وقّعه هارون الرشيد في قصة رجل من البرامكة: "أنبتته الطاعة، وحصدته المعصية"⁵. تضمّنت التوقيعة جملتين متضادتين: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية، وهذا ما يسمّى بالمقابلة.
- 11- لقد شاع في التوقيعات بعض المحسنات البديعية (كالسجع)⁶، و(الجناس)⁷، و(الطباق)⁸ نورد بعضاً منها على سبيل المثال: ما وقّعه يزيد بن عبد الملك في كتاب عامله على خراسان، وقد استبطأه في الخراج: (قليل العتاب يحكم مرائر الأسباب، وكثيره يقطع أواخي الانتساب)⁹.
- 12- ومن يتصفّح التوقيعات التي أوردناها، يجد كثيراً منها قد جاء بصيغة الأمر ما عدا الآيات والأحاديث والشعر، لأنها صدرت عن رئيس إلى مرؤوس.

¹ المرجع نفسه، ص238.

² التشبيه: هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى.

³ الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه.

⁴ المرجع السابق، هاشم مناع ومأمون، النثر في العصر العباسي، ص238.

⁵ المرجع السابق: أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص296.

⁶ السجع: هو تواطؤ فاصلتين من النثر على حرف واحد

⁷ الجناس: هو محسن بديعي لفظي يعني اتّفاق لفظتين في النطق والكتابة، واختلافهما في المعنى.

⁸ الطباق: هو الجمع بين لفظتين متضادتين في المعنى في كلام واحد للإيضاح.

⁹ المرجع السابق: أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص289.

- وصيغ الأمر كما هو معروف تفيد التقرير والتنفيذ وعدم المخالفة. أمّا ما ورد بصيغة الأسلوب الإنشائي والخبري، فإنّه خرج إلى الأمر والتقرير أيضاً).¹ مثل توقيع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: (داو جُرْحَكَ لا يَنْتَسِع).²
- نجد في هذه التوقيعة التلميح على ما أعوج من حكمه قبل أن يؤدي أعوجاً به إلى عزله.
- 13- (التوقيعات في معظمها (استعارات تمثيلية)³، لذلك جاء الخيال فيها جزئياً، أضف إلى ذلك أنها تعبير عن واقع، ومعالجة لقضية، وتقرير لحقيقة، وحل لمشكلة).⁴
- فمن الواضح أن التوقيعات امتازت بخصائص فنية جعلتها فن من الفنون الأدبية، وذلك يظهر من خلال استعمال الموقعين الأساليب البيانية، وجزالة المعاني، وسهولة الألفاظ في عباراتهم.

1 المرجع السابق، هاشم مناع ومأمون، النثر في العصر العباسي، ص239.

2 أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، ج4، المكتبة العلمية: ط، دس، لبنان، ص374.

3 الاستعارات التمثيلية: تركيب استعمل في غير ما وُضِعَ له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناها الأصلي.

4 المرجع السابق: هاشم مناع ومأمون، النثر في العصر العباسي، ص239.

5. موضوعات التوقيعات:

تنوعت موضوعات التوقيعات بين موضوعات دينية وسياسية، وأخلاقية واجتماعية، وذلك التعدد في الموضوعات يرتبط بتعدد الرسائل الآتية إلى الموقع.

أولاً: على الصعيد الديني والأخلاقي: نجد قيماً كمثل دعوة الموقع له إلى التوبة، ومثال ذلك أن أحد المحبوسين استعطف عمر بن عبد العزيز في الإفراج عنه، فوقع عمر له: (تُب تطلق)¹، ويقصد بهذا تُب عمّا فعلته من أخطاء يطلق صراحك، فشيء رائع أن يطلب الإنسان الصفح والتوبة ممّا ارتكبه من ذنوب.

ونجد أيضاً في الأمور الحربية قد يوقع الخليفة توقيعه دينياً، فقد طلب أحد العمال من عمر بن عبد العزيز بناء حصن فوقع له عمر بن عبد العزيز: (حصنها ونفسك بتقوى الله).² إذن فتحصين النفوس يكون بتقوى الله والخشية منه، لأن النفوس أمارة بالسوء، كما جاء في قوله تعالى: (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) سورة يوسف الآية 53.

وقد تحمل التوقيعات مضموناً دينياً وذلك بالاقتراب من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف ومنها توقيع عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة في أمر على تبه عليه: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) سورة البقرة الآية 281، أي أن الله تعالى أمر عباده بتقواه ناهياً لهم عمّا يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) سورة التوبة الآية 119. أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون.

ثانياً: على الصعيد السياسي: (فقد كانت التوقيعات تكتب أكثر ما تكتب على رسائل الولاة والوزراء والحكام والقراء ومن هم في طبقاتهم، والجدير بالذكر أن موضوعات هذا النوع تتضمن التوجيه، الإرشاد، التهديد والوعيد، الترغيب، الترهيب والفخر).³

معنى ذلك أن التوقيعات السياسية قوة شخصية الخليفة وقدرته على إدارة أمور الدولة في قوة رغم ضيق الوقت ولذلك كثير ما جاءت هذه التوقيعات مختصرة للغاية عند تحليلها بلاغياً، ومن التوقيعات السياسية نجد توقيع معاوية تحت الزمان، (من رفعناه ارتفع ومن

¹المرجع السابق: أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص291.

²المرجع نفسه، ص291.

³المرجع السابق، هاشم مناع ومأمون، النثر في العصر العباسي، ص224.

وضعه (إضح).¹ وهذه التوقعة جاءت في مقام الفخر، كما نجد أحياناً توقيعات تحمل في مضمونها تهديداً للموقع له ليظهر مدى قوة الخليفة ليراجع الموقع له عن موقف مروان بن محمد وقد بلغه أنه يتباطأ في البيعة، فوقع إليه: (أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإن أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت). فهذا تهديد صريح بأنه سيقطع إحدى رجليه إذا تباطأ في البيعة بعد أن يصل توقيع الخليفة إليه.

ومن التوقيعات الأخلاقية تحمل في طياتها معاني الصدق والصبر ومثال ذلك أن جماعة إشتكت احتباس أرزاقهم فوق السفاح في كتابهم. (من صبر في الشدة، شارك في النعمة ثم أمر بأرزاقهم).

لقد ألقى السفاح درساً لهؤلاء الذين جاءوا يشتكون إليه في مدى تعليمهم بالصبر لأن الصبر مفتاح الفرج والشدة مهما طالت فسيأتي الفرج لا محال.

ثالثاً: على الصعيد الاجتماعي: تأتي التوقيعات الاجتماعية لمعالجة ظروف وكل ما يتعلق بالمجتمع من فقر وتحسين أوضاع، وبناء منازل وغيرهما من الظروف الخاصة بالمجتمع بغرض تمتين العلاقات والصلات الاجتماعية وترسيخها من قبيل التضامن والإحسان وغيرهما، ومن أمثلة ذلك توقيع المأمون في قصة أن الجراد أتى على غلاف أهل السواد، فوقع المأمون في قصتهم متضامناً، (نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السواد فليحظي عنهم نصف الخراج).²

يوضح التوقيع أن المأمون يحمل هم أهل السواد وأنه سيقدم لهم يد العون في المحنة التي أصابتهم بسبب الجراد الذي أهلكهم وحين هاجمهم، فالموقع بفعله هذا استطاع أن يبرز موقفه التضامني ويظهر هذا في قوله ليحظي عنهم نصف الخراج.

¹ المرجع السابق: الثعالبي، خاص الخاص، ص 86.

² لمرجع السابق: أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج 4، ص 291.

6. الأثر النقدي للتوقيعات:

ظهرت العديد من الآثار النقدية لفن التوقيعات (وانعكس ذلك على النثر العربي ممثلاً في الكتابات والتدوين، فقد ظهر عدد من الكتاب استطاعوا أن يتقنوا قواعد الكتابة والإنشاء وتحرير الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية، وكذا الرسائل الأدبية التي تمثلت في عدد من المؤلفات والكتب، ككتب الجاحظ وغيره).¹

معنى هذا أنه كان للتوقيعات أثر بليغ في ميدان النقد وهذا يظهر من خلال المؤلفات والكتب النقدية لأن الكتاب في ذلك الوقت كانوا متمكنين من إتقان قواعد الكتابة والتدوين وهذا ما سهل عليهم وأعانهم.

كما كانت تلك التوقيعات نفسها مطبوعة بطابع نقدي، بل اتجه العديد منها في دلالاته تتناول قضية نقدية واضحة، (فقد روي أن شخصاً كتب إلى صاحب بن عباد رقعة وقد أثار فيها على رسائله، وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها: هذه بضاعتنا ردت إلينا). ووقع في رقعة استحسناها: أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون).²

معنى هذا أن في التوقيعة الأولى يشير ابن عباد إلى قضية السرقة الأدبية التي وجدها في شعر الرجل أو المحتوى الذي في تلك الرقعة فكانت الآية رمزاً كنائياً، فقد حملت ملمحاً نقدياً واضحاً.

وأما في التوقيعة الثانية فهي إقتباس من القرآن الكريم يوحى بالإعجاب والإشادة بالنص الذي تضمنته الرقعة.

ولم يقف ابن عباد عند هذا بل كان أكثر شدة ويحرر توقيعاته في جوانب لغوية دقيقة، ويعالج أغلاط ما يكتب إليه بحزم، فقد كتب إليه بعض العمال رقعة في التماس شغل وفي الرقعة: (إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله). فوقع تحتها: (من كتب إشغالي لا

¹ المرجع السابق: عبد الكريم حسين رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي، ص272.

² ابن أبي الدنيا، قرى الصيق، تح: عبد الله بن حمد المنصور، أضواء السلف، الرياض، ط1، ج3، ص234.

يصلح لأشغالي) ونجد في التوقيعات دما واضحا لتعقيد الكلام وتعريض بالأسلوب الركيك والتقليد لأسجاع القديمة.

فقد رفع إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب عامل من عماله: (أن في بيت النار كانونا من آثار الأكاسرة، وفيها أكثر من ألفي رطل فضة وفي فضته توفير لببيت المال، فوقع: حرصك على تقفية آثار الأوائل يدل على لؤم أصلك، فبعد أو سحقا لك).¹

وفي هذا لمحة نقدية تدعو إلى إجتنب التفاضح في الكلام كما أن انتشار تلك التوقيعات الموجزة في العهود العباسية والأندلسية واتساعها أضفى على الحركة الأدبية والتأليف سمة الإيجاز والتركيز على العبارة المختصرة. (وكان هذا النوع من الكتابة هو ميدان فرسان البلاغة حينئذ وكم نسمع أن هذا أو ذاك كاتب بليغ مثل يوسف بن سليمان الكاتب فإن كان كاتباً بليغاً عالماً بحدود الكتابة بصيرا بأعمالها، والرازي كان كاتباً بليغاً وأبو عبد الله محمد بن عبد الرؤوف كان بليغاً مترسلاً،

وتدل الكتابة الرسمية في هذه المرحلة على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير والإيثار المعنى، وأصحاب التوقيعات المقتضية هم المشهود لهم بالبلاغة في هذا الشأن، وفضل الكتابة كلما إنتحلت طبيعة التوقيعات).²

نستنتج أن للتوقيعات أثر نقدي وهذا من خلال كتابات النقاد والكتاب، لأنهم كانوا يستعملون في عباراتهم الإيجاز مما ساعدهم على بلوغ القصد والغرض أيضاً إيثار المعنى في ذهن المتلقي.

¹ المرجع السابق: الثعالبي، خاص الخاص، ص92.

² المرجع السابق: عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص268.

الفصل الثاني

دراسة تحليلية لنماذج تطبيقية من فن

التوقيعات

تمهيد: لقد تجسدت التوقيعات في مختلف العصور بحيث تميز هذا الفن الأدبي بخصائص جعلته فناً نثرياً بليغاً وموجزاً، ضف إلى ذلك لديه غاية وغرض وهو التواصل بين الموقع والموقع عليه، وعليه تضمن هذا الفصل المعنون ب: (نماذج من توقيعات العصور الإسلامي، الأموي، العباسي)، حيث تطرقنا فيه إلى نماذج مقتطفة من كل عصر.

1. تحليل نماذج من توقيعات عصر صدر الإسلام:

شهد العصر الإسلامي ميلاد لون جديد من الألوان العربية النثرية حيث يعتمد على الفطرة السليمة والموهبة الفذة والبديهة والارتجال في التعبير.

وقد عرف فن التوقيعات بالتحديد مع الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وامتد مع بقية الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم إبان الفتوحات الإسلامية لضرورته في خدمة المجتمع الإسلامي آنذاك مع شيوع الكتابة التي أدت إلى انتشار وازدهاره في الأمصار فكان من الواجب تعلمه وتعليمه للنشأ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه من دومة الجندل يستأمر في أمر العدو، فوقع: (أدن من الكوت توهب* لك الحياة)¹.

❖ تضمن التوقيع أمر خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق بالاقتراب من العدو والتصدي له ومواجهته من أجل عيش حياة كريمة، ويفهم من خلال هذا أيضاً أن التوقيع يحمل أمرين الأول: (أن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أراد بتوقيعه أن ينمي في نفوس المجاهدين حب الشهادة في سبيل الله، وفي سبيل نصره الإسلام والمسلمين، مبيناً أن في الشهادة حياة عظيمة لهم، فالموت بذلك بداية حياة لا موت بعده).

والأمر الثاني: أن في هذا التوقيع توجيه عسكري وسياسي مفاده أنك بمقدار ما تطلب العدو وتلاحقه وتخرجه من سادة العمليات، وبإخراجه تبقى أنت في ساحة الحياة. معنى هذا أن الشهادة من أجل الإسلام ونصرة المسلمين تعتبر من أهم الأشياء التي كان يطمح إليها المحارب في ذلك العصر².

¹ التعالبي، خاص الخاص، ص67.

² رفيع أحمد، قراءة في فن التوقيعات العربية وإيجازه قراءة أنموذجية للعصور المختلفة العدد 3، أبريل 2008م.

لقد استخدم الموقع ل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مجموعة من الدعائم من أجل التأثير والإقناع في الموقع له لخالد بن الوليد بهدف تحقيق التواصل بينهما وهي:

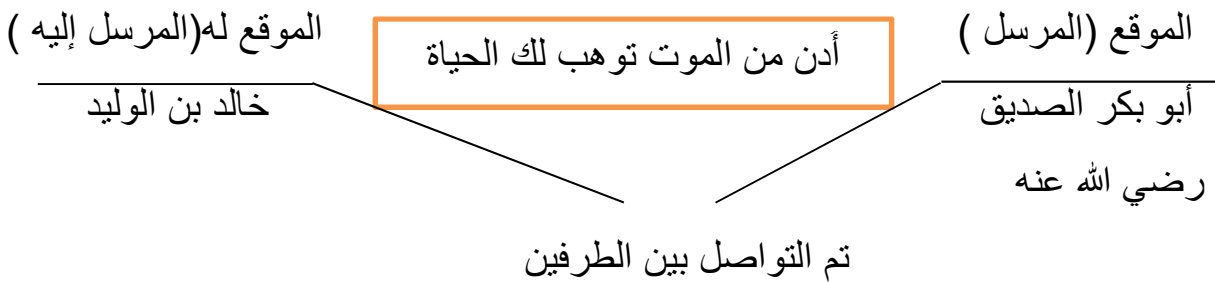
أ. **الدعائم النحوية:** اشتمل التوقيع على أسلوب إنشائي طلبى غرضه الأمر (أدن) وهو يفيد التقرير والتنفيذ وأيضا أسلوب الشرط فجملته (أدن من الموت) وهنا الفعل مبني للمعلوم. أما جوابه (توهب لك الحياة) وهنا الفعل مبني للمجهول، نوع الجملة: لقد ابتدأ التوقيع بجملة فعلية والتي تفيد الحركة والاستمرار.

ب. **الدعائم البلاغية:** لقد احتوى التوقيع على محسن بديعي (الموت، الحياة) وهو طباق ونوعه الإيجاب، وأيضا اشتمل على أسلوب بلاغي آخر وهو الإيجاز ونوعه القصر الذي نستطيع أن نحذف أي شيء من التوقيع.

ت. **الدعائم الإيقاعية:** لقد جمع الموقع بين عنصرى الوجود، والجمه بينهما هو جمع لإرث كل مفردة سماتها وإيقاعها، ولهما معاني في سياق التوقيع إيقاع جديد، هو إيقاع من يجمع بين الفرح والحزن بين البقاء والفناء، بين الحضور والغياب، كل هذه المعاني المتضادة جعلت التوقيع ذا بنية إيقاعية ودلالية متكاملة في الوقت الذي تغيب فيه القافية لانعدام ضرورتها.

ث. **المخطط البياني:**

سياق عسكري سياسي



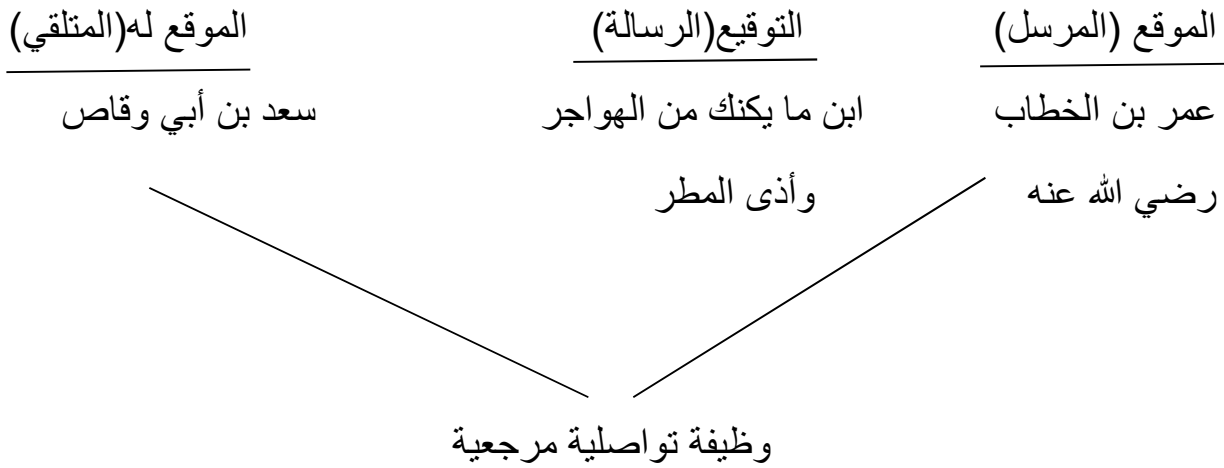
نستنتج إذن أن الموقع (أبو بكر الصديق) استطاع أن يحقق العملية التواصلية التي كان يرمي إليها، وذلك من خلال استعماله للدعائم الندائية بغرض التأثير في المتلقي (خالد بن الوليد) بأن الموت في سبيل الله وفي سبيل الوطن هو بداية حياة لا موت بعده، وهذا ما يطابق قوله تعالى: (وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ). سورة آل عمران، الآية 169.

❖ كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في بنيان يبنيه فوق إليه: (ابن ما يَكْنُك من الهواجر وأذى المطر)¹. يتبين لنا من التوقيع أن الإنسان لابد أن يكون له بنيان يأويه من حر الصيف وبرد الشتاء، بمعنى أن الموقع (عمر ابن الخطاب رضي الله عنه) يأمر الموقع (سعد بن أبي وقاص) بأن يشيد المرء بناءً محكما يحميه ويقيه من حرارة الشمس وبرد المطر، فالبناء لا يخص الإنسان فحسب بل حتى الحيوان، فقد أمر الله تعالى بالنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا أي بناءً قال تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) سورة النحل الآية 68.

لقد وصف الملقي بعض الدعائم لتأكيد موقفه وإقناع الموقع له (المتلقي) منها والدعائم النحوية: بدأ الموقع توقيعه بفعل أمر "ابن" لأن الفعل يعطي قوة ويزيد في حرص المتلقي لأن يقوم بالمطلوب فأذن الجملة الفعلية حركتها استمراريتها.

أ. الدعائم البلاغية: الهواجر=المطر طباق الإيجاب، نوع الإيجاز= إيجاز الحذف، والمحذوف هو ما يستتر من أشعة الشمس، ويحمي ويقى من أذى المطر.

ب. المخطط البياني للتوقيع:



نستخلص ممّا ذكر أنفاً أن الموقع استطاع إيصال الرسالة وذلك بواسطة عملية التواصل والحوار الذي دار بينه وبين المتلقي، إن التوقيع معانيه ومفرداته المنتقاة بكل عناية تمكن المُخَاطَب من التأثير في المُخَاطَب.

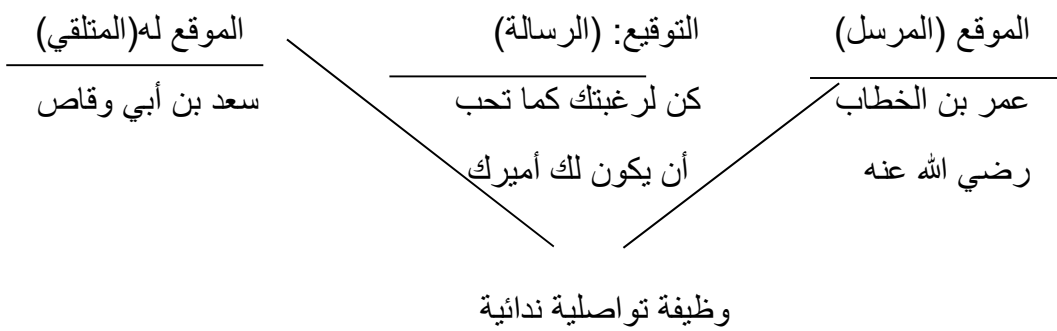
¹ المرجع السابق: الثعالبي، خاص الخاص، ص126.

❖ ووقع إلى عمر بن العاص: (كن لرغبتك كما تحب أن يكون لك أميرك)¹. يوضح لنا التوقيع الطريقة التي رسمها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمر لكي تكون إدارته مجدية ونافعة، وهذا ما يؤكد الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

فالتوقيع بحث على حسن التعامل مع العامل، والحرص على عدم تضييع حقوقه من أجل القيام بواجباته على أكمل وجه دون نقصان أو إهمال، فالراعي لا بد أن يراعي حقوق الآخر وأن يهتم بشؤونهم لأنها مسؤولية كبيرة عليه أن يؤديها بكل إخلاص وصدق فقول الملقى (كن لرغبتك) دليل على أنه يأمر المتلقي (الموقع له) بالقيام بواجباته على أحسن وجه ثم قال: (كما تحب أن يكون لك أميرك)².

موقفه للفت انتباه المتلقي، وكأنه يقابل بين أمرين الأول: الأمر القيام بالواجب والشعور بالمسؤولية، والثاني: المجاز بالمثل في قوله: كما تحب أن يكون لك أميرك، تضمن التوقيع وظيفة ندائية، وهي دعائم تعزز التوقيع مثل استعماله أسلوب إنشائي ألا وهو الأمر (كن) وأيضا المؤكد في قوله (أن يكون لك أميرك).

المخطط البياني للتوقيع:



نستنتج إذن أن الموقع يملك مهارات فن القول، أي أسلوب بليغ حقق ما كان يرمي إليه وهو إشعار المتلقي بمدى أهمية المسؤولية ومراعاة شؤون الآخرين والتعامل معه بكل تواضع واحترام. وبذلك تحققت عملية التواصل بين الطرفين.

1 أحمد بن محمد عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترخيني، ج4، ص287

2 المصدر نفسه، ص287.

❖ ووقع عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم، وذكروا أنه بوجء¹ أعناقهم: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) سورة الشعراء الآية 216.

لقد اتخذ مروان في حق المتظلمين قرارا مجحفا، وذلك عندما أمر بضرب أعناقهم، وهو القرار الذي لم يستسغه الخليفة عثمان رضي الله عنه نفسه بسبب بعده عن أحكام القرآن الكريم، فإذا كانت جريرتهم هي العصيان فإن هذا الأخير لا يستوجب ضرب الأعناق، وإنما يقتضي التبرؤ منهم ومن أعمالهم، (ومن عصاه أي عصى الرسول صلى الله عليه وسلم من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه".²) وبهذا بين الله له كيف يعامل العصاة فيكلهم إلى ربهم ويبرأ مما يعملون).³

إنّ في استشهاد الخليفة عثمان بالآية القرآنية الكريمة تذكيرا لمروان بضرورة التقيد بأحكام الشريعة بإقامة العدل والإنصاف، إضافة إلى ذلك رغبته في حمل مروان على تغيير موقفه ليوافق أحكام القرآن الكريم، وذلك لأن إقامة الحدود (ضرب أعناقهم) تخضع لأحكام شرعية لا للنزوات الفردية، كما تراعي فيها مجموعة من الشروط والاعتبارات.

لقد "استند الخليفة (عثمان رضي الله عنه في محاولة تغييره لموقف مروان إلى آية قرآنية مراعاة لهوية المخاطب (الموقع) ولطبيعة القرار المتخذ من طرفه وذلك إيمانا منه بأن هذا الدليل النقلى هو الحجة الأقوى، والأكثر ملاءمة لسياق القول (أي التوقيع) وظروفه، وبالتالي هو الأكثر قدرة على التأثير والإقناع".⁴

إن الدليل الذي استند عليه الخليفة هو دليل قطعي لا نقاش فيه لأنه حكم إلهي ولا اعتراض على حكم الله في تطبيق الأحكام والعمل بها، فقد تمكن الموقع من خلال الآية الكريمة من إقناع الموقع له وتوصيل الرسالة التي كان على المتلقي أن يأخذها بعين الاعتبار لأنها تتعلق بحكم شرعي.

¹ بوجء: يقال وجأه بالسكين: أي ضربه

² الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار القاهرة للنشر والتوزيع، القاهرة، بط، 2006م، ص376.

³ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط8، 1399هـ-1979م، ص20-26.

⁴ محمد مشبال، البلاغة وأنواع الخطاب، دار الرؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017م، ص76-77.

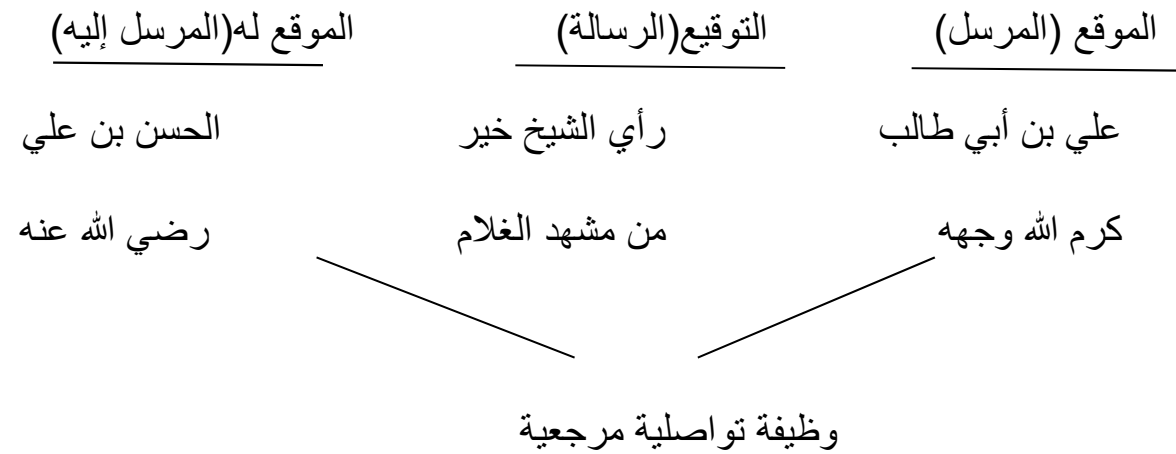
❖ ووقع علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في كتاب جاء من الحسن بن علي رضي الله عنه (رأي الشيخ خير من مشهد الغلام)¹ يدل التوقيع على وعي وحكمة وهدف كلام الشيخ، وأنه أفضل وأحسن من مشهد الغلام.

وهذا يعكس مكانه وعظمة الشيخ الكبيرة لماله من خبرة وتجارب في الحياة عكس الغلام الذي هو في بداية مشواره الحياتي.

لقد بدأ الموقع (المرسل) توقيعه باسم للدلالة على ثبوت الشيء وأي ثبات وسداد رأي الشيخ وهنا نجده يفصله على رأي الغلام.

إنّ التوقيع بالرغم من قلة ألفاظه إلا أن معانيه توحى بدلالات كثيرة وهنا بلاغة الخطيب لأنّ في إيجاز الكلام فهم للمقصود وتأثير في المتلقي وإقناعه ومن الدعائم التي وظفها الموقع البلاغة وهو الإيجاز،

المخطط البياني للتوقيع:



نستطيع القول من خلال ما ذكر سابقاً أن المرسل استطاع أن يوصل الرسالة إلى المتلقي والتأثير عليه بأسلوبه البلاغي الفن، وهذا يدل على حكمه وفطنة الموقع في أسلوب فن الحوار والقول لإقناع الطرف الآخر أي المستمع.

¹ المرجع السابق، التعاليبي، خاص الخاص، ص127

2. تحليل نماذج من توقيعات العصر الأموي:

في العصر الأموي أصبحت التوقيعات امتداداً طبيعياً لما كانت عليه في عصر صدر الإسلام، (بعد أن عرفت واستخدمت كثيراً من حيث إعتاد كل خليفة أموي كاتباً أن يوقع على الرسائل التي ترد إليه بعد أن يطلع عليها ويعرف مضمونها). ونجد في هذا العصر أن الخلفاء وعامتهم يتبعون طريقة الإيجاز في كلامهم ويسلكون مسلك أباؤهم في التعبير عما في نفوسهم بكلمات متوازنة وألفاظ متناسبة، فكانوا يقدمون ملاحظاتهم ونقاشاتهم على الرسائل بإيجاز بليغ ويختارون الألفاظ المتناسبة التي تؤدي إلى المعنى المراد دون لبس أو غموض وتكون واضحة الدلالة على المعنى حتى تتحقق الغاية المنشودة من التوقيعات.

❖ ومن أمثلة ذلك نذكر ما وقعه معاوية بن أبي سفيان في كتاب عبد الله بن عامر يسأله أن يقطعه مالا بالطائف: (عش رجباً، تر عجباً)¹.

معنى هذا أنّ حياة الإنسان في تغير وحركة، كما أنّها تحدث فيها أشياء ووقائع إما إيجابية أو سلبية، ولهذا على الفرد أن يعيش حياته بما كتبها الله له، ولا يقنط من رحمته الواسعة، ومما يدعم هذا الكلام المثل العربي: (أحبيني اليوم واقتليني غداً).

أ. **الدعائم النحوية:** وظف الموقع (معاوية بن أبي سفيان) الأمر المتمثل في (عش) والذي يفيد التحقيق والتنفيذ. وأيضاً تضمن التوقيع أسلوب شرط، فجملة الشرط هي (عش رجباً)، وجوابه (تر عجباً)، لأن القول محمول على معنى الشرط أي تعش رجباً ترى عجباً، ومعنى هذا أن ظهور العجائب مشروط يتجدد في الأزمان، فما على الإنسان إلا أن يعيش زمانه ليكون شاهداً على عجائبه المتجددة بتوالي الشهور والأحوال وأيضاً نجد التوقيع استعمل جملة فعلية ممّا تحمله من حركة وديمومة للاستمرار.

ب. **الدعائم البلاغية:** تجسد في التوقيع الجناس والترصيع (عش رجباً/ تر عجباً)، اللذان أسهما في تزيين التوقيع وزخرفته، (علماً أن مضامين الأمثال تدعم في الغالب بمجانسات

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الأموي، المكتبة العلمية، د، دت، ج2، ص291.

صوتية تقوي الشعور بحدة محتواه)¹. أرى أنك إذا أدركت رجباً، وستصبح شاهداً على ما يحمله تجدد الأزمان من عجائب ومنها أن ترى ابن عامر يسأل معاوية أيقطعه أَرْضاً، أو تشاهد غنياً يتفقى آثار المال والمتاع، أو أن تجد مسؤولاً شغلته المطامع عن النظر في مظالم الناس ومصالحهم، أو أن تستحيل القيم النبيلة السامية في رجب إلى سلوكات انتهائية وصيغة مثيرة للاستغراب والاستهجان.

وكذلك جاء في التوقيع أسلوب الإيجاز نوعه الحذف، والمقصود في التوقيع هو عش رجباً بعد رجب أ سنة بعد سنة ترى أشياء وأحداث عديدة وغريبة، وهناك تغيرات من فصل أو شهر.

ت. الدعائم الدلالية: إحتوى التوقيع على لفظة خاصة، وهي لفظة (رجب) التي تنطوي على دلالات إنسانية ودينية عميقة، ومعنى هذا أن شهر رجب وغيره من الشهور لا يمكن أن يتحول إلى فرصة تغتنم للمطالبة بالامتيازات أو تحقيق بعض المصالح الشخصية (أن يقطعه ما لا بالطائف)، فمن غير المعقول إذن أن يمتد العمر بعبد الله بن عامر إلى رجب أو يحول عليه الحول ليطلب من معاوية أن يمكنه من عقار بالطائف، لأن بمثل هذه السلوكات فإننا نجرد هذا الشهر من قيمه الدينية والإنسانية النبيلة لنعوضها بالمطامع والمطامح الشخصية.

ث. المخطط البياني:

الموقع	سياق ديني أدبي	الموقع له (المرسل إليه)
معاوية بن أبي سفيان	عش رجباً تر عجباً	عبد الله بن عامر

نستخلص أن الموقع أثر في الموقع له وذلك باستخدامه المثل، لأنه يزخر بآليات لغوية وبلاغية وأدوات تصويرية بهدف تحقيق غرضه والمتمثل في إقناع المخاطب (عبد الله بن عامر) بضرورة إتخاذ المواقف بديلة تبعده عن العجب والغربة، وهنا تجسد في التوقيع وظيفة ندائية وتظهر من خلال توظيف الموقع أسلوب الأمر.

¹ محمد العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ-1986م، ص93.

❖ وكتب إليه ربيعة بن عسل اليربوعي يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع: (أدراك في البصرة؟ أم البصرة في دارك؟)¹. يعني أنه طلب العون منه في بناء داره، ونجده استخدم في هذه التوقيعة حرف عطف (أم) الذي يفيد التخيير.

أ. **الدعائم النحوية:** لقد وظف الموقع معاوية أسلوب الاستفهام الذي يفيد التعيين أي أنه قال له عين أين دارك؟ وعلى المتلقي ربيعة داري في البصرة أو البصرة في داري.

ب. **الدعائم البلاغية:** إحتوى التوقيع على حرف العطف أم الذي يفيد الجمع والتخيير بين الشئيين.

وأيضا جاء الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار من طرف الموقع له (ربيعة)، فالاستفهام هنا أتى استنكار لإهدار المال والأرض لمصلحة الوالي.

وكذلك نلمح أسلوب الإيجاز ونوعه القصر الذي لا نستطيع أن نحذف أي شيء من التوقيع، وهذا ما زاده جمالاً وبلاغة.

ومن الأساليب البديع التي تحدث إيقاعاً في التوقيع هي رد الصدر على العجز كما فعل معاوية (أدراك في البصرة أم البصرة في دارك؟).

وتضمن التوقيع أيضا المقابلة العكسية ببعض المقارنات لأغراض بلاغية، ولهذا نعتبر قول معاوية دعوة إلى المقارنة بين ما هو كليّ (البصرة)، وما هو جزئيّ (الدار)، وذلك للوصول إلى النتيجة المرجوة ألا وهي إقناع ربيعة بالتراجع عن قراره لدوافع منطقية وأخلاقية، ومن ذلك أنه لا يمكن ل(الدار) أن تسع (البصرة)، كما لا يليق بربيعة أن يضحي بنخيل البصرة ليشيد منزله الخاص، وهذا يتم تفادي كل سلوك قد يجنح نحو الإسراف والتبذير والمبالغة فيهما.

ت. المخطط البياني:

الموقع له (المرسل إليه)

سياق ديني أدبي

الموقع

ربيعة بن عسل اليربوعي

أدراك في البصرة

معاوية بن أبي سفيان

أم البصرة في دارك؟

¹ المرجع السابق، أحمد بن عبده ربه، العقد الفريد، ج4، تح: عبد الحميد الترحيني، ص288.

نجد في هذا التوقع أن الموقع له محاصر لا يستطيع الإجابة وليس أمامه إلا السكوت الذي يعني الإذعان بأن طلبه غير منطقي ومن ثم فإنه غير مقبول، وهنا نرى أن الخليفة معاوية يعيد المتلقي أيضا إلى نفسه ليفكر فيما طلب وليعلم أنه لم يكن لديه حق فيما طلب.

وكذلك نلمح فوائد أخرى لاستفهام كالتعجب من حال المتلقي (الموقع له ربيعة) والإنكار والتوبيخ، وبه القدر تحقق التواصل بين الموقع والموقع له مما أدى إلى بروز وظيفة ندائية بهدف إقناع الموقع له وإعادة النظر فيما طلبه المتلقي.

❖ وقع هشام بن عبد الملك في قضية متظلم: (أتاك الغوث إن كنت صادقاً، وحل بك النكال إن كنت كاذباً. فتقدم أو تأخر)¹. والمقصود من خلال التوقيع أن الكلام الطيب الصادق يكون فيه منفعة وخير للغير، عكس الكلام الكاذب الذي يأتيك من وراءه عقاب وشر. أ. **الدعائم النحوية:** استخدم الموقع مؤكد من المؤكدات ألا وهو (إنّ)، وأيضاً نجده استعمل حرف من حروف العطف وهو (أو) الذي يفيد الجمع والتخيير بين الشئيين.

ب. **الدعائم الدلالية:** لقد وظف الموقع التضاد والمتمثل في: الغوث/ النكال. صادقاً/كاذباً. شكل في العبارة الأولى هيئة مستقلة تماماً هي هيئة الإكرام والنجدة في حال الصدق، ثم قابلها بهيئة أخرى مستقلة في العبارة الثانية هي هيئة الإمساك والعقاب في حال الكذب. وكان الموقع يرغب إلى المخاطب أو يوجهه لاتخاذ المسار الأمثل والأولى لما فيه من خير له، وينفره من صفة هي في الأصل مكروهة لديه (الكذب) ويردعه عنها، ثم يظهر لنا أن الموقع لم يكن مراقباً محايداً، بل أراد أن يؤكد موقفه من هذه الثنائيات المتنافرة المتلاحقة، لتأتي الجملة الإنشائية فتقدم أو تأخر لتُخَيِّرَه في انتقاء إحدى الضفتين، ضفة الخير أو ضفة الشر وتهده في الوقت نفسه.

ت. **الدعائم البلاغية:** ومنها الطباق والمقابلة (الطباق: الغوث/النكال، صادقاً/كاذباً)، أما المقابلة: أتاك الغوث إن كنت صادقاً/ حل بك النكال إن كنت كاذباً ويقومان بحمل المعنى وضده ومن فوائدها في التوقيعات المساهمة في البناء الموسيقي للتوقيع مما يعطي للتوقيع جمالا موسيقيا ناتجا عن حسن التقسيم والتكافؤ الصوتي بين الجملتين، وكذلك نلمح في التوقيع أسلوب بلاغي آخر وهو أسلوب الإيجاز وهو إيجاز القصر.

تحمل التوقيعة قيمة دينية واجتماعية، فالجانب الديني يتعلق بصدق الإنسان مع ربه وابتعاده عن الكذب وخوفه من الوقوع في التحلي بالصدق واجتناب كل ما من شأنه أن يوقعه في الكذب.

ومما يلائم هذه التوقيعة المثل المشهور (حبل الكذب قصير)، أي أنّ الإنسان مهما طال كذبه سيتبين الحق ويظهر من كان كاذباً.

¹ المرجع السابق: أحمد بن عبده ربه، العقد الفريد، ص209.

ث. المخطط البياني:

الموقع له (المرسل إليه)

سياق ديني أدبي

الموقع

عبد الله بن عامر

عش رجباً تر عجباً

معاوية بن أبي سفيان

نلاحظ أن الموقع استخدم عدة دعائم وذلك لضرورتها في بناء التوقيعة، وأيضا تجسد في التوقيعة تضاد بين قضيتين هما الصدق والكذب، وهما صفتان متنافرتان، فالأولى هي صفة حميدة يجب على كل فرد الاتسام بها، والثانية اجتناب هذه الصفة لأنها تؤذي على عقاب مرتكبها مهما طال الحال، وعليه فإن الموقع استطاع إقناع الموقع له ومن هنا برزت وظيفة تعبيرية في التوقيعة.

3. تحليل نماذج من توقيعات العصر العباسي:

اتصلت في هذا العصر الذهبي تلك الدلالة التي شاعت في العصر الأموي، لكن أضيفت إليها دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية السائدة في العصر العباسي، حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسم التي يصدرها السلطان أو الملك لتعيين والٍ أو وزير أو قاضٍ.

(وإمتازت هذه التوقيعات بطولها والإسهاب في ذكر الحثيات والأسباب المسوغة للتعيين حتى تجاور بعضها أربع صفحات، ولكن التوقيعات بهذا المفهوم لا تعد توقيعات أدبية بل تعدها من باب الكتابة الديوانية والوثائق التاريخية، ثم تحول معنى التوقيعات إلى علامة اسم السلطان خاصة التي تذيّل بها الأوامر والمراسم والصكوك)¹.

وفي الواقع أن التوقيعات لم يكتب لها حظ من الذيوع والانتشار إلا في هذا العصر لأن الكتابة الفنية قد شاعت وانتشرت وتعددت أغراضها وأسلوبها، ففي هذا العصر أنشأ لها ديوان خاص سمي بديوان التوقيعات وعين فيه كبار الكتاب والأدباء البارعون.

لقد أسهمت التوقيعات منذ بدايتها الأولى في توجيه السياسة العامة للدولة الإسلامية في عصر صدر الإسلام ودولة بني أمية، ولكن عندما جاء الأمر إلى بني العباس وتستقر أمور الدولة في القرن 3هـ، وتزعا إلى الترف والعيش الرغيد وزاد إختلاطهم بالفرس أخذوا يتأنقون ويطيلون في الكتابة الفنية حتى خرجوا عن أساليب القدماء ومالوا إلى السجع وسائر ألوان البديع والمعاني.

❖ ومن أمثلة ذلك ما وقعه أبو العباس السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم. (من صبر في الشدة شارك في النعمة ثم أمر بأرزاقهم)².

يظهر من التوقيع أنه أراد أن الصبر في الشدائد والألام يعطي الفرح والسرور في الرخاء والعيش، وكذلك نرى هنا الشدة التي تصارع النعمة والصبر على المعاناة والتحلي بالعزيمة، والجلد يصطدم مع الرخاء ليتولد عنه قيام شخصية صلبة متينة.

¹ المرجع السابق: المعجم الوسيط، 1050.

² المرجع السابق: أحمد بن عبده ربه، العقد الفريد، ص 209.

أ. **الدعائم النحوية:** وظف الموقع (السفاح) من الشرطية، أي أنه يقول من يصبر في الشدة يشارك في النعمة، فعل جملة الشرط جاء ماضي صبر في الشدة، وجوابه شارك في النعمة.

ب. **الدعائم النحوية:** وظف الموقع (السفاح) من الشرطية، أي أنه يقول من يصبر في الشدة يشارك في النعمة، فعل جملة الشرط جاء ماضي صبر في الشدة، وجوابه شارك في النعمة.

ت. **الدعائم البلاغية:** إحتوى التوقيع على إيجاز القصر، وأيضا نجد أسلوب بدعي ألا وهو الطباق: الشدة/النعمة وهو طباق إيجاب.

ث. **المخطط البياني:**

<u>الموقع له</u>	<u>سياق ديني أخلاقي</u>	<u>الموقع</u>
جماعة من بطانته.	من صبر في الشدة شارك في النعمة ثم أمر بأرزاقهم.	أبو العباس السفاح

نلاحظ أن الموقع استطاع إرجاع أرزاق تلك الجماعة وأن يأخذوا العبرة، لأن في حياة تحدث وقائع وأشياء لا نتوقعها، ولكن مع الصبر والتحمل الشاق الحياة تصبح الحياة مليئة بالنعم والخيرات، كما يقال: (الصبر مفتاح الفرج)، لقد كان التواصل قائم بين الموقع والموقع له بسبب عدة دعائم المشجعة لإنجاحه وتبادلته.

❖ ووقع الرستمي في قصة من تظلم منه، وكان دائنة: (ليست المروءة أن تكون أنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو).¹

يوحي هذا التوقيع إلى أن قيمة الإنسان لا تقدر بالمال ولا بالأشياء الفاخرة، وإنما بالتواضع والمروءة والحلم والعلم ومحبة الخير للناس جميعاً، كما جاء في هذا القول لأبي حنيفة: (لِبْسُكَ يَرْفَعُكَ قَبْلَ جُلُوسِكَ وَعِلْمُكَ يَرْفَعُكَ بَعْدَ جُلُوسِكَ).

أ. **الدعائم النحوية:** استهل الموقع توقيعه بجملة إسمية (ليست) التي تدل على الثبات، أي أن صفة المروءة ثابتة في الإنسان لا تتغير مهما تغيرت الظروف، وأيضا نجد التأكيد باستعماله حرف (أن)، الذي يؤكد هذه الصفة ويثبتها.

ب. **الدعائم البلاغية:** تضمنت التوقيع الإيجاز ونوعه القصر، ونجده أيضا أسلوب المقابلة وهي غريمك خاو، وجارك طاو.

ت. **المخطط البياني:**

الموقع	سياق ديني أدبي	الموقع له (المرسل إليه)
الرستمي	ليست المروءة أن تكون أنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو.	قصة من تظلم منه.

نستخلص إذن أن الموقع بتوظيفه الجملة الإسمية وأسلوب التأكيد استطاع إقناع المتظلمين منه بإثبات صفة المروءة، ومن هنا نلمح بروز وظيفة مرجعية في التوقيع.

¹ المرجع السابق، أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج1، ص55.

❖ وأيضاً كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك لما بلغه أنه خرق فيما خُلف له عبد الملك، ينكر ذلك عليه ويعرفه على أنه على غير صواب، فوقع في كتابه: (لأجمعن المال جمع من يعيش أبداً، ولأفرقنه تفريق من يموت غدا).¹ معنى هذا أنّ الإنسان مهما جمع المال وعدده سيعيش ما كتبه الله له، وما رزقه به وأن الدنيا فانية والخلود لله عزوجل.

أ. **الدعائم النحوية:** استعمال الموقع أسلوب التوكيد ألا وهو اللام (لأجمعن)، وكذلك توظيفه الأفعال المضارعة (يعيش، يموت) للدلالة على الحركة والديمومة.

ب. **الدعائم البلاغية:** احتوى التوقيع على أسلوب التقابل والمتمثل في: (تقابل بين أربع مفردات:

- لأجمعن = لأفرقن، جمع = تفريق، يعيش = يموت، كذا = أبداً.

فهذا التراحم في معاني الأضداد، وانتظام التناسب الحرفي، حَقَّق انسجاماً في الألفاظ، وتألّفا في التركيب، فبدت كقطبي رحى لا هي إلى اليمين تتجه، ولا إلى اليسار تنجذب، فولد لدينا إحساساً بالمتعة وأصابنا بهزة من الأريحية.

ت. **المخطط البياني:**

الموقع	سياق إجتماعي أخلاقي	الموقع له (المرسل إليه)
الوليد بن عبد الملك	لأجمعن المال من يعيش أبداً	الحجاج
	ولأفرقنه من يموت غدا.	

نستخلص إذن أنّ الموقع أكد موقفه وذلك يظهر من خلال استعمال أسلوب التوكيد، وأن الحق سيتبين مهما طال الزمن، وعليه فإن الإنسان ليس ملزم بجمع المال دون صدقة أو تبرع لأن سيؤديه إلى الجهل والبعد عن القيم الإنسانية كالزكاة، وكسوة الفقراء، وإطعام المساكين، فهذه الأعمال يتقرب إلى الله تعالى ويزداد ما له بدون أن يشعر، عكس الإنسان الذي يبخل على الناس فسيأتي يوماً ولا يفرح بما له ويحسب أن المال الذي جمعه وعدده سيخلده إلى الأبد، وهذا ما جاء في قوله تعالى: (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ). سورة الهمة الآية 2-3. وعليه تجسد في التوقيع وظيفة إقامة الاتصال.

¹ المرجع السابق، أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج1، ص578.

❖ ووقع السفاح إلى كاتب جنده وقد شغبوا عليه بالأخبار: بَلَّغَ الْمُغْتَرِبِينَ عَنِّي: (أبرقتم بأعجازكم، أم عظمت نعمة الله عليكم في دينكم ودنياكم، أفلا تكون عظة العقلاء، فتجف أعمالهم وتخيب أمالككم، والعطاء غير مؤخر عن وقته إن شاء الله).¹

إنَّ السفاح يتوعد الخارجين عليه بأن يكونوا عبرة لغيرهم، إذا ما قصرُوا فيما هو آتٍ.

أ. **الدعائم النحوية:** وظف الموقع أسلوب إنشائي ألا وهو الاستفهام والمتمثل في أداء الهمزة. وأيضا استحيل الأفعال الماضية (برقتم)، عظمت والأفعال المضارعة تحبط، تخيب التي تدل على الحركة والاستمرارية.

ب. **الدعائم البلاغية:** احتوى التوقيع على صورة بلاغية وهي الطباق: العقلاء/الجهلاء، وأيضا نجد السجع الذي زاد في التوقيع نغمة موسيقية رنانة في كلمتين: أعمالكم/أمالككم.

ت. **المخطط البياني:**

الموقع	سياق ديني أخلاقي	الموقع له (المرسل إليه)
السفاح	أبرقتم بأعجازكم، أم عظمت نعمة	كاتب جنده
	الله عليكم في دينكم ودنياكم، أفلا تكون عظة العقلاء	
	فتجف أعمالهم وتخيب أمالككم، والعطاء غير مؤخر عن وقته إن شاء الله.	

نستنتج ممّا سبق أن الافتراء صفة مذمومة وعلى الإنسان أن يتأكد من صحة الكلام قبل النطق به، وعليه تجسد في التوقيع وظيفة تعبيرية من أجل تحقيق التواصل وإقناع المتلقين.

¹المرجع السابق: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج1، ص55.

خاتمة

بعد أن وفقنا الله تعالى بالجهد أن ندرس بلاغة فن التوقيعات في ضوء نظرية التواصل نظرياً وتطبيقاً، لا بد أن نسجل بعض النتائج التي قاد إليها البحث، أهمها:

1. أن التواصل هو عملية تقوم بين شخصين أو أكثر بهدف تبادل الأفكار والعلاقات المشاعر بين الأفراد المشاركة في العملية التواصلية.
2. أن مصطلح التواصل ظهر مع مدرسة براغ اللسانية، وانتشر وتوسع في بيداغوجيا تعليم اللغات، وهي المدرسة البنوية التي تأسست في عام 1926م، ومن أهم روادها رومان جاكسون.
3. لقد أبرز لنا رومان جاكسون نظرية لها عناصر ووظائف ألا وهي: نظرية التواصل، التي كانت تسمى مسبقاً نظرية الإعلام.
4. أن النموذج التواصلية لدى رومان يقوم على ستة عناصر أساسية لكي تكون العملية التواصلية ناجحة، وهي المرسل وهو مؤدي الرسالة، المتلقي الذي يستقبلها، إقامة اتصال بين المرسل والمتلقي وهي قناة الاتصال بينهما لغة مشتركة يتكلمونها معاً، وأيضاً رسالة لغوية: وهي ظرف للمحتوى الكلامي، مستوى لغوي ترمز إليه الرسالة، وذلك باستخدام اللغة المشتركة بينهما.
5. وقد حدّد رومان ستة وظائف مهمة وتتمثل في الوظيفة التعبيرية الشعرية، الندائية، ما وراء اللغة، إقامة اتصال، الوظيفة المرجعية.
6. أن التوقيعات لون من ألوان الكتابة ذات عبارات موجزة بليغة يكتبها الأمير أو الوزير أو الخليفة في أسفل الكتب الواردة إليهم، ضف إلى ذلك أن التوقيع يتميز بالاختصار والجمال والايجاز.
7. أنّ نشأة التوقيعات بدأت مع الخلافة الراشدة فكانت قليلة وكان نموّها أكثر في العصر الأموي إذ أصبح لكل خليفة مجموعة من التوقيعات، وأخيراً جاء العصر العباسي فوجد هذا الفن كاملاً بفضل الجهود والعصور السابقة.
8. لقد تعددت الأسباب والعوامل التي أدت إلى ازدهار وتفشي فن التوقيعات في مختلف العصور، مثلاً في العصر الاسلامي نجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد شجع وساهم في

- تعليم الصبيان الكتابة والقراءة، كما تعتبر الكتابة عماد التوقيعات، وهذا ما أدى إلى انتشارها بين صفوف المسلمين، ولاسيما في عصر الدولتين: الأموية والعباسية.
9. تميزت التوقيعات بخصائص وميزات لم يحظ بها أدب آخر، نذكر منها: أنها لم تكن في مجال الكذب والمراوغة والمخالفة، وأيضا قد تكون اقتباسا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أمثال، حكم، أبيات شعرية وكذلك التضمين والنثر.
10. كما وردت ألفاظ التوقيعات عذبة سائرة بين الحسن والجودة والمثانة، والرقّة والفخامة، والجمال والقوة.
11. يعتبر الإيجاز من أهم الأساليب التي تركز عليها التوقيعات، لأن هو الذي يزيد قوة وبلاغة، إذ من إحدى شروطه الاختصار والدقة.
- كما تناولنا في الفصل التطبيقي نماذج مقتطفة من كل عصر تتضمن في طياتها وظيفة تواصلية إبلاغية.
12. تنوعت موضوعات فن التوقيعات بتنوع الرسائل الآتية إلى المؤّقع فمنها ما كان ديني كإقامة العدل وفض الخصومات وتهذيب السلوك، ومنها ما جاء سياسي الذي عمل على توجيه الواقع السياسي، وساهم في معالجة شؤون الحكم، وكذلك نجد ما جاء اجتماعي يهدف إلى حل القضايا الاجتماعية ورفع المظالم وهذا كلّه بتعبير بلاغي موجز.
13. لقد كان لفن التوقيعات أثر نقدي وذلك من خلال كتابات النقاد وتوظيفهم سمة الإيجاز والاختصار في الخطاب الرسمي الأدبي.
- وفي الأخير نتمنى أن نكون قد ألمننا بجزء من فن التوقيعات لأنه مجال واسع يحتاج إلى الدراسة والبحث، وعليه يمكن للدارسين التوسع في الموضوع وإبراز علاقة التوقيعات بالرسائل النصية الحالية، وهل لها أثر على الفرد والمجتمع.
- وشكرا.

ملاحق

السيرة العلمية لرومان جاكبسون

حياة رومان جاكبسون: (وُلِدَ سنة 1896م بموسكو تخصصَّ في القواعد المقارنة وفتح اللغة السلافية، لما كان في جامعة موسكو؛ أسَّس سنة 1915م مع بعض الطلاب (نادي موسكو الألسني)، وعنه تولَّدت مدرسة الشكلانيين الروس، وساهم في وضع بعض النظريات الأدبية الحديثة.

يمثل جاكبسون إحدى حلقات الاتصال الشخصية القليلة بين التقاليد اللغوية الغربية والأمريكية، وأصبح صاحب الحق الذي لا ينازع في تلك الدراسة، ولقد غيَّرت أفكاره تغييراً جذرياً الاتجاه الذي ظفر في علم اللغة الأمريكية في العشرين سنة الأخيرة).

مؤلفاته:

- البنية الصوتية للغة - لغة الأطفال.
- قضايا الشعرية - مقالات في اللسانيات العامة.
- مبادئ اللغة.
- مقدمة في تحليل الكلام.
- التطور الفونولوجي في لغة الأطفال.
- حول نظرية الأصول الفونولوجية.
- ملاحظات حول التطور الفونولوجي للروسية.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية حفص.

❖ المعاجم العربية:

1. أبي الحسين احمد ابن فارس زكريا الرازي ، معجم مقاييس اللغة، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1420 هجري، 1992م.
2. أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 11.
3. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الدولية، ط 4-2005م.
4. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تاج العروس، رتبه ووثقه خليل مأمون شيعا، دار المعرفة للطباعة والنشر (بيروت، لبنان)، 1430، 2009، ط4.
5. الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج، 2 دار القلم، بيروت، دط، دت.
6. الخليل بن احمد الفراهيدي، العين، تحقيق، عبد الحميد الهنداوي، ج4، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان) 2003م، 1424هـ، ط1.

❖ المصادر والمراجع:

1. احمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تح، عبد المجيد الريجيني، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404، 1983م.
2. أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، ج4، المكتبة العلمية: ط، دس، لبنان.
3. أحمد حسن الزيان، تاريخ الأدب العربي، دار الشرف العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان-بيروت.
4. أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجامعة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ط3، دس.
5. أحمد عزوز، المدارس اللسانية، دار الأديب للنشر والتوزيع، منشورات مخبر اللغة العربية، دط، دس.
6. الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، ط1، مصر، 1357هـ

7. جمال محمّد أبو شنب، نظريات الاتصال والإعلام، المفاهيم، المداخل النّظرية، القضايا، دار المعرفة الجامعية، د، ط، 2013م.
8. هاشم مناع ومأمون ياسين، النشر في العصر العباسي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م
9. هيام كريدية، الألسنية، رواد وأعلام، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
10. هيام كريدية، أضواء على الألسنة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، 1429هـ.
11. الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار القاهرة، 2006م.
12. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، دط، 1426هـ، 2005م.
13. الطبري، تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، ج5، 2008م.
14. مختار عطية، الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز، دراسة بلاغية، دار المعرفة الجامعية، دط، 1997م.
15. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط8، 1399هـ، 1979م.
16. نور الدين رايس، اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1-2014م.
17. نعمان بوقرة، اللسانيات العامة اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 1430هـ 2009م.
18. عبد القادر الغزالي، لسانيات ونظرية التواصل (رومان جاكبسون نموذجاً)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003م.
19. عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة، دار الفكر للنشر، لبنان، ط1-2007م.
20. عبد الرحمان طه، التواصل والحجاج، كلية الآداب للعلوم الإنسانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د، ط، دس.
21. القلقشندي ابو عباس أحمد علي (821هـ 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ويوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، ط الأولى، بيروت 1407 / 1987م، ج1

22. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1971م.

23. الثعالبي، خاص الخاص، منشورات دار مكتبة حياة، بيروت، ط1، دت.

❖ المقالات:

1. محمد عيسى صالحية، مقال مؤدبو الخلفاء في العصر العباسي الأول، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 5، المجلد 5، ج2، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1982م.
2. عبد الكريم حسين، علي رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي أستاذ اللغة العربية المساعد، كلية التربية سقطرى، جامعة حضرموت.
3. رفيع أحمد، قراءة في فن التوقيعات العربية وإيجازه (قراءة أنموذجية للعصور المختلفة، العدد 3، أبريل، 2018م.

الفهرس

الصفحة	العنوان
– أ-ب-	❖ مقدمة. ❖ الشكر والإهداء.
02 05 06	❖ المدخل: نظرية التواصل مفهومها، نشأتها ووظائفها. 1. مفهوم التواصل (لغة واصطلاحا). 2. مفهوم مصطلح التواصل في اللسانيات. 3. نظرية التواصل عند رومان جاكبسون.
11 14 18 20 24 26	❖ الفصل الأول: أدبية فن التوقيعات. 1. تعريف التوقيعات لغة واصطلاحا). 2. نشأتها عبر العصور (الإسلامي، الأموي، العباسي). 3. عوامل ازدهار فن التوقيعات. 4. الخصائص الفنية للتوقيعات. 5. موضوعات التوقيعات. 6. الأثر النقدي للتوقيعات.
29 35 41	❖ الفصل الثاني: فن التوقيعات في ضوء نظرية التواصل. 1. تحليل نماذج من توقيعات عصر صدر الإسلام. 2. تحليل نماذج من توقيعات العصر الأموي. 3. تحليل نماذج من توقيعات العصر العباسي.
46 49 53	❖ خاتمة. ❖ ملاحق. ❖ المصادر والمراجع

الملخص:

يعني هذا البحث بدراسة فن التوقيعات في ضوء نظرية التواصل، فالتوقيعات عبارات موجزة بليغة ذات دلالات موحية بأسلوب رفيع في قمة البلاغة، فهي تجرس مجرى المثل، إذ تعد لون من ألوان الكتابة التي كان يكتبها الخلفاء والأمراء إلى الرعية من أجل تصليح أوضاعهم وتلبية طلباتهم.

فقد ظهر هذا الفن في بداية صدر الاسلام مع الخلفاء الراشدين وبدأ ينتشر شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ أوجه في العصر العباسي، حيث أرسى له العباسيون قواعد وخصائص تحكم هذا الفن، وبذلك أصبح التوقيع فن مستقلاً بذاته له خصائص ومميزات وعلماء وموضوعات التي انفرد بها عن باقي الألوان النثرية الأخرى، ففن التوقيعات فن عربي وجليل يبدأ أنه لم ينل قسطاً كبيراً من الدراسة والبحث.

مصطلحات البحث:

- فن التوقيعات - نظرية التواصل - بلاغة.

Cette recherche consiste à étudier l'art de la signature à la lumière de la théorie de la communication, car les signatures sont des phrases brèves et éloquentes à connotation indicative d'une belle manière en tête de la rhétorique, comme elles sonnent le cours du proverbe, car c'est une couleur d'écriture que les califes et les princes écrivaient à la paroisse pour corriger leurs conditions et répondre à leurs demandes.

Cet art est apparu au début de l'islam avec les califes bien guidés et a commencé à se répandre peu à peu jusqu'à ce qu'il atteigne son apogée à l'époque abbasside, où les Abbassides ont établi des règles et des caractéristiques qui régissent cet art, et ainsi la signature est devenue un art indépendant avec ses propres caractéristiques, traits, savants et sujets qu'il était unique au reste des couleurs. Prose récente, L'art des signatures est un grand art arabe qui commence par ne pas recevoir beaucoup d'études et de recherches.

Termes de recherche :

- L'art des signatures - Théorie de la communication - Rhétorique.